علماء أسرى الالتباس

هل هناك من يستطيع أن يوجد في هيئة بشرية
دون أن يعيش أحاسيس زمن الأرض؟

ألبرشت هاوسهوفر، المقدونيون

انتشر كالنار في الهشيم خبر تعيين آدولف هتلر مستشارا للرايش يوم الاثنين في 30 كانون الثاني 1933. كانت العاصمة تشبه مشفى مجانين، حيث وحدات ال س آ و س س تجوب الشوارع، بينما وقف على الأرصفة متفرجون بعضهم متحمس وبعضهم الآخر خائف، وضجت الكتل الشعبية وسط برلين في المساء، واحتشدت أمام فندق «الكيزرسهوف» وحدات من ال س س بثيابها العسكرية، وقام أفراد من ال س آ بالحراسة في قاعة وممرات الفندق، ووقف قادة نازيون أمام المدخل الرئيس يؤدون التحية الهتلرية لطوابير ومسيرات لا نهاية لها.

قطعات

كانت الأمور تتسم بأدب جم في واحدة من قاعات الفندق، التقت فيها نخبة برلينية متخصصة في السياسة الخارجية على طعام ومحاضرة ختامية عنوانها «رسالة ألمانيا الأوروبية»، يلقيها الأمير كودنهوف ـ كاليرجي، مؤسس اتحاد أوروبا العام. كان فون سيكت بين الحاضرين، وقد صحبه ضيف هو

الديبلوماسي، «الأمير الأحمر» هاري جراف كيسلر، كما كان بينهم أيضا فالتر سيمون، وزير الخارجية السابق والرئيس اللاحق لمحكمة الرايش، وهو خبير متمكن لطالما انتقد صلات روسيا السرية بجيش الرايش.

اصطدمت محاضرة الأمير بتحفظ متشائم لدى المستمعين، فقد أراد لأوروبا أن تضع حدودا لا يتخطاها الاتحاد السوفييتي أو الماركسية. لكن الأمير هاري كيسلر، الذي كان أوروبيا مقتنعا بدوره، شعر ككثير من المستمعين أن فكرة المحاضر «تخدم الامبرياليين ودعاة حرب الإبادة ضد البلاشفة»[1].

طلب أوتو هوتسش، أستاذ التاريخ الأوروبي الذائع الصيت في جامعة برلين، الكلمة خلال النقاش الذي تلا المحاضرة. وكان قد خاض ذات يوم حوارات سياسية مع كارل راديك، إبان حبسهما في زنزانة مشتركة بسجن موآبيت، وانتمى كنائب قومي سابق في البرلمان الألماني إلى عدد قليل من البرلمانيين تم إطلاعهم على العلاقات السرية الألمانية / السوفييتية. عارض الأستاذ المحاضر، وقال إن الجيل الأقدم وحده مستعد للانقلاب على الاتحاد السوفييتي بالاتفاق مع الغرب، بينما الشباب متشبع كثيرا بأفكار جماعية واشتراكية، وليست لديه رغبة في حمل أفكار المحاضر الليبرالية المحافظة.

ليس معروفا إن كان أوسكار فون نيدرماير حاضرا أثناء المحاضرة والنقاش التالي في الفندق. لو كان موجودا، لأبدى تفهمه لاعتراضات «الأمير الأحمر» والأستاذ القومي الألماني. لكن يوم 30 كانون الثاني من عام 1933 كان لحظة مهمة بالنسبة إلى نيدرماير، بغض النظر عن مظاهرات

1. انظر حول التزامن بين استيلاء النازيين على السلطة في الشارع والنقاش المبدئي حول وحدة أوروبا بين الساسة في الصالون: هاري جراف كيسلر: يوميات 1918 ـ 1937. فن ومجتمع العشرينات، فرانكفورت على الماين 1961، ص 703.

النازيين ونقاش النخبة حول أوروبا، ففيه انتهت خدمته كضابط عامل في الجيش وصار مدنيا منذ الأول من شباط.

ليس معروفا بصورة مؤكدة لماذا ترك نيدرماير الخدمة العاملة. وليس واضحا ما إذا كانت دعوى الشرف التي رفعها فون هانتيج ضده قد لعبت دورا في هذا السياق. ومن المشكوك فيه أيضا إنه كان يمكن إيجاد عمل ملائم له في جيش الرايش بعد رجوعه من موسكو، يتفق مع معارفه واهتماماته ومع حاجات الجيش. والحقيقة إن نيدرماير ترك منذ رحلته الأولى إلى فارس في خريف عام 1912 المسار الوظيفي التقليدي للضباط، الذي يقوم بين الخدمة في الوحدات والعمل في الأركان، ولم يفعل شيئا بعد ذاك إلا وارتبط بتنفيذ مهام خاصة على وجه الحصر، لذلك، لم يكن نيدرماير ضابط وحدات، ولم يكن كذلك ضابط أركان بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، بل إنه لم يحظ بالتأهيل العسكري الضروري لضباط الأركان العامة، رغم أنه ارتدى خلال الحرب العالمية الثانية ثياب ضباط الأركان العامة البافارية.

ترك نيدرماير موقعه كمدير لـ«مركز موسكو» في نهاية تشرين الثاني من عام 1931، بعد أن بلغت حركة التجارب والاختبارات ذروتها في المحطات الألمانية خلال الصيف، واقتربت في الوقت نفسه من بلوغ نقطة الانعطاف. عندما تم الاحتفال في 16 نيسان عام 1932 بالعيد العاشر لتوقيع اتفاقية رابالو، أظهرت الذكرى ما شاب العلاقات العسكرية القائمة منذ سنوات كثيرة من برود، خاصة وأن موسكو انتهجت عام 1931 سياسة انفتاح على الغرب قادها وزير الخارجية الجديد ماكسيم لتفنوف، ووقعت يوم 25 تموز 1932 معاهدة عدم اعتداء مع بولونيا، في حين عززت حكومة الرايش، بدورها، أنشطتها الديبلوماسية الموجهة إلى الغرب بقيادة المستشار الجديد هاينريش برونينج، وتوصلت يوم 11 كانون الأول 1932 إلى أندية عسكرية صورية على أقل تقدير خلال مؤتمر نزع السلاح في جنيف، بعد أن كانت قد قررت تفكيك محطة ليبشيك صيف 1932. هكذا بدا عند منعطف عام 1932 /

1933 على أبعد حد أن «مركز موسكو» انتهى بالشكل الذي أعطاه نيدرماير له خلال سنوات كثيرة، وتم تفكيك المحطات في روسيا عام 1933، وأغلق «المركز» واستعيض عنه بملحق عسكري يحمل اعتمادا رسميا.

كانت قيادة الرايش الألماني إبان حقبة جمهورية فايمار الأخيرة بين أيدي رجال عسكريي الطابع، فبروننج خدم كضابط احتياط خلال الحرب العالمية الأولى، وطبع الولاء العسكري علاقته مع رئيس الرايش المارشال العجوز باول فون هندنبورج بطابعه. بعد استقالته، تولى مستشارية الرايش الضابط السابق فرانس فون بابن، والجنرال فون شلايشر، الذي كان في الخدمة الفعلية.

عرف مستشارو الرايش الثلاثة، الذين بلغوا هذا الموقع عام 1932، نيدرماير بصورة شخصية. وهناك تصريح أدلى به بروننج في المهجر الأميركي اعتبر فيه نيدرماير ضابطا معاديا للنازية على الصعيد الفكري، وقال إنه ذكي سياسيا ومستعد للعمل في آن معا[2]. وتذكر فرانز فون بابن في مذكراته الحجاجية عملية نيدرماير ضد لورانس قرب الطفيلة عام 1918[3]. بينما أمضى كورت فون شلايشر عيد فصح عام 1930 وهو يلتهم كافيار نيدرماير، الذي كان قد زوده به من موسكو. لكنه يصعب الحكم على كثافة علاقاته بهؤلاء، مثلما يصعب الحكم على دوره في اللقاء بين رئيس الرايش فون هندنبورج ورئيس أركان حرب الجيش الأحمر ميخايل توخاتشفسكي، بمناسبة المناورة التي قام بها جيش الرايش خريف عام 1932 قرب باد سارو في مارك براندنبورج.

2. كريستوف يار: اللواء أوسكار فون نيدرماير، في جيرد أوبرشير (الناشر): نخبة هتلر السياسية، الجزء الأول، من بدايات النظام إلى بداية الحرب، دارمشتات 1998، ص 178 ـ 194.

3. فرانز فون بابن، زقاق للحقيقة. ميونيخ 1952، ص 106.

لا تكاد توجد أية وثائق حول أنشطة نيدرماير في سنوات جمهورية فايمار الأخيرة، وإن كان معروفا أنه أقام بعد عودته من موسكو علاقات اجتماعية تقع خارج الدائرة العسكرية، فكانت له صلات مع كارل ترول، الجغرافي الشاب الذي تلقت زوجته إليزابيت يوم 11 أيلول عام 1932 نسخة من كتابه «تحت شمس إيران اللاهبة» مزودة بإهداء كتبه بخط يده[4]. كان كارل ترول، العالم استثنائي الموهبة من الجيل التالي، أصغر بأربعة عشر عاما من نيدرماير، وقد تولى عام 1925 وهو في السادسة والعشرين من العمر منصب مدرس في جامعة برلين. وفي عام 1930 سمي أستاذا للجغرافيا والجغرافيا الكولونيالية. اتفق اهتمام ترول العلمي بمناطق الجبال المرتفعة خارج أوروبا مع ميول نيدرماير، وقادته بعثاته فيما بعد إلى النانجا برابات، وجلبت أبحاثه العالمية الواسعة حول مناطق المرتفعات الجبلية له سمعة دولية، كما تحتفل جامعة بون، التي سمته عام 1938 أستاذا عاديا في ملاكها التدريسي، بذكراه المجيدة إلى اليوم.

لا تفاجئنا الصلة الاجتماعية بين نيدرماير وجغرافي معروف مثل كارل ترول. بالمقابل، ليس هناك ما يثبت أنه أقام صلة بعد عودته من موسكو مع واحد من أكثر الساسة والمثقفين الألمان إثارة للاختلاف، كان يمكن أن يكون قريبا منه روحيا وسياسيا، هو إرنست نيكيش، ناشر «المقاومة»، جريدة كثيرة القراء عبرت عن الأوساط الثقافية اليمينية المتطرفة في جمهورية فايمار، مع أنه كان ديموقراطيا اجتماعيا بالأصل، وأسس بعد الحرب العالمية حزب «الاشتراكيين القدماء»، وروج فكرة التقارب مع روسيا، كمؤمن بأفكار اشتراكية وقومية. دعم نيكيش وأصدقاؤه، الذين غالبا ما اعتبرهم الآخرون «بلاشفة قوميون»، التعاون السري بين جيش الرايش والجيش الأحمر. تذكر فابيان شلابندورف، الذي كان أحد أنشط ضباط

4. النسخة موجودة اليوم في حلقة البحث الجغرافية لجامعة فريدريش فيلهلم الراينية، بون.

المقاومة ضد هتلر، ما يلي بعد الحرب العالمية الثانية: «عندما أراد رئيس قيادة جيش الرايش فون سيكت إعادة وصل ما انقطع من خيوط مع روسيا السوفييتية، سافر نيكيش إلى موسكو بتكليف منه، حيث وجدت المحادثات التي أجراها مع راديك صدى مؤثرا»[5]. إن من يتابع طريق أوسكار فون نيدرماير في العشرينات والثلاثينات، كان بوسعه توقع ورود اسم نيكيش في الوثيقة التالية. لكن هذا التوقع خاب إلى اليوم، مع أن إرنست شودكوبف، مؤرخ البلاشفة القوميين ونصير نيكيش كان من تلامذة نيدرماير، الذي ربما يكون قد أتلف كل ما يشير إلى نيكيش بعد 30 كانون الثاني 1933، خاصة بعد أن اعتقل كواحد من أكثر أعداء هتلر جذرية، وألقي به في معسكر اعتقال، حيث أسيئت معاملته وعذب بقسوة.

هتلر أم سيكت؟

أملى هتلر خلال اعتقاله في لاندسبرج كتاب دعاية وبرنامج أسماه «كفاحي» على سكرتيره الخاص رودلف هيس، صديق كارل هاوسهوفر المفضل، أعلن فيه الحرب على «البلشفية اليهودية». ارتبطت العقيدة الأيدلوجية العرقية بالعداء النضالي للبلشفية بأفكار فريدريش راتسل الجيوسياسية، التي قرأها هتلر خلال اعتقاله، لتشكل استراتيجية اختلفت من حيث مضمونها ونهجها اختلافا جذريا عن التأملات الجيوسياسية، التي قال بها سيكت ونيدرماير.

كان هتلر يعرف تأملات سيكت الجيوسياسية، التي رفضها بوضوح في «كفاحي». بخلاف سيكت، المقدوني البروسي، رأى هتلر أن هدف ألمانيا المستقبلي «لا يكمن في حملة اسكندر جديدة تبعث على الانتشاء»، بل في شيء مختلف أشد الاختلاف، وقال: «لا يجوز أن يكون التوجه نحو الغرب

5. فابيان فون شلابرندورف: ضباط ضد هتلر. زيوريخ 1946، ص 15.

أو الشرق هدف سياستنا الخارجية المقبل، وإنما يجب أن يكون هناك سياسة شرقية هدفها الاستيلاء على الأراضي الضرورية لشعبنا الألماني»[6]. لم يترك هتلر أي شك في المكان الذي يريد الاستيلاء على هذا «المجال الحيوي» فيه: «إذا كنا نتحدث اليوم عن أرض جديدة في أوروبا، فإننا نستطيع التفكير بالدرجة الأولى بروسيا والدول الطرفية الخاضعة لها».

ربط هتلر هدفه الثاني، «تصفية الحساب المبدئي مع اليهود أعداء شعبنا الماركسيين الألداء»، الذين ضربوا «الجوهر الجرماني» للنخبة القيادية الروسية القديمة، بهذا التصور، لأن سلطة البلاشفة، الذين كان القسم الأكبر من قادتهم يهودي الأصل، كانت تعني في نظره سيطرة اليهودية على روسيا، وهذا كان يحكم بحد ذاته بالزوال على الاتحاد السوفييتي. قال تحليل هتلر المصاب بعمى أيديولوجي / عرقي: «إن الامبرطورية العملاقة في الشرق ناضجة للانهيار. وستكون نهاية السيطرة اليهودية في روسيا نهاية الدولة الروسية أيضا».

رفض هتلر سياسة سيكت حيال روسيا السوفييتية، التي طبقها جيش الرايش وتآلفت معها حكومته. وكان يعتقد بمحدودية الآثار السياسية لسياسة سرية محسوبة بطريقة عقلانية، تريد توجيه التطورات السياسية بطريقة غائية وإلى مدى طويل انطلاقا من الوزارات. وكان يرى أن الخيارات التي لها معنى تاريخي كوني لا تنبع من «قالب صبه مجلس سري ما أو من الروح القديمة والجافة لوزير ما». كلا، إن «مهمة حكومته التي ستتقدم أية مهمة أخرى»، وأعلنها قبل استيلائه على السلطة بوقت طويل، تكمن في «إعلان حرب إبادة على الماركسية، من أجل منح هذه القوى حرية الحركة». كيف يمكن «إخراج السم الماركسي من جسم شعبنا؟» هذا ما يصفه هتلر بصراحة عنيفة يصعب المزايدة عليها: «لو وضع المرء عند بداية الحرب أو خلالها

6. أدولف هتلر: كفاحي، ميونيخ 1939، ص 757.

اثني عشر أو خمسة عشر ألفا من مفسدي الشعب العبريين هؤلاء تحت الغاز السام، الذي كان على مئات الآلاف من أفضل عمالنا الألمان، المنحدرين من مختلف الفئات والوظائف، التعرض له في ميدان القتال، لما ذهب ملايين الضحايا على الجبهة عبثا».

اتهم نيدرماير هتلر، خلال لحظة حاسمة من حياته، بإعلان الحرب على الاتحاد السوفييتي، منذ وضع كتاب «كفاحي». وقال إنه قاد ألمانيا بهذا القرار إلى الكارثة. لقد قرأ على الأقل تلك الأجزاء من الكتاب، التي عرض فيها هتلر بطريقة برنامجية سياسته المقبلة تجاه الاتحاد السوفييتي والامبراطورية البريطانية، ورفض فيها بصورة قطعية إشاعة الفوضى في الأخيرة، وأعلن رفضه أي تعاون مع شعوب المستعمرات المضطهدة والمستغلة من البريطانيين. وهو يذكّر بسنوات 1920 / 1921، عندما بدأ حزبه يأخذ موطئ قدم في ميونيخ، وناقشت دوائر قومية في العاصمة البافارية فكرة ضم الحزب النازي إلى «عصبة الأمم المضطهدة باعتباره حركة تحرر الأمة الألمانية. لقد تم آنذاك تقديم مصريين وهنود إلى هتلر، الذي قال إنهم تركوا لديه الانطباع بأنهم مدّعو أهمية ثرثارون يفتقرون إلى أية خلفية حقيقية»، وغضب لأن ثمة في المعسكر القومي ألمان «يسمحون لمثل هؤلاء الشرقيين المغرورين بتضليلهم». وقد عارض بحزم في مرحلة مبكرة جدا العلاقات السياسية بين حزبه وبين ممثلي الشعوب المضطهدة كولونياليا، وقال: «لقد قاومت دوما مثل هذه المحاولات، ليس فقط لأنه كان لدي ما هو أفضل من تضييع أسابيع «في محادثات» عقيمة، بل لأنني اعتقدت أيضا أنه حتى عندما يتعلق الأمر بممثلين مفوضين لمثل هذه الأمم، فإن المسألة برمتها لن تكون مفيدة».

لم يشارك هتلر مطلقا في الأمل بقرب انهيار السيطرة البريطانية على الهند، الذي ظهر عام 1920/ 1921. عوض ذلك، رأى والألم يعتصره أن الساسة الآسيويين، «الذين كانوا يتسكعون آنذاك في أوروبا»، قد نجحوا في

إقناع أناس عقلاء عادة بفكرة ثابتة هي أن الامبرطورية البريطانية تواجه الانهيار في الهند، نقطة ارتكازها الرئيسة». اعتبر هتلر هذا «برهانا على الغفلة التي تميز الألماني في مواجهة نمط تغلغل البريطانيين في هذه الإمبراطورية وطريقة إدارتهم لها». لم يكن بوسع المهيجين الهنود في أي وقت زعزعة السيطرة البريطانية: «ولن تخسر إنجلترا الهند إلا إذا أصيبت آلة إدارتها بالتفكك العرقي (وهذا شيء مستحيل الحدوث اليوم في الهند)، أو هزمت بسيف قوة قادرة». لكن البريطانيين كانوا حصينين ضد الهزيمة، هذا ما تقوله خبرة ألمانيا في الحرب العالمية، «بغض النظر عن أنني أفضل كجرماني أن تكون الهند تحت السيطرة البريطانية على أن تكون تحت أية سيطرة أخرى». كيف كان سيبدو رد فعل هتلر، لو أنه عرف بالخطة التي وضعها ماكس فون أوبنهايم في خريف عام 1914 لزعزعة استقرار الهند؟.

رأى هتلر في حلف يضم ألمانيا إلى إنجلترا الجرمانية وإيطاليا الفاشية الأساس الأفضل للسياسة الألمانية: «إن قانون الفعل هو في أيدي الحلف الألماني / الإنجليزي / الإيطالي الجديد». كان الشريك الذي حلم هتلر به هو بريطانيا العظمى، وليس الدول نصف الآسيوية كالامبراطورية العثمانية، حليف الحرب الأخيرة: «إن الدولة الأقوى على وجه الأرض والدولة القومية الفتية ـ يقصد ألمانيا ـ سيؤسسان شروطا للنضال الأوروبي مختلفة عن تلك التي تقدمها جثث الدول المتعفنة التي تحالفت ألمانيا معها في الحرب الأخيرة».

حذر هتلر بكلمات مؤثرة من التحالف مع روسيا: «ستكمن في عقد تحالف مع روسيا فاتورة الحرب القادمة، التي لن تكون نتيجتها غير نهاية ألمانيا». أما علاقة ألمانيا مع روسيا فكانت بالنسبة إليه «أكثر شؤون السياسة الخارجية الألمانية أهمية»، «محك الفاعلية السياسية للحركة الاشتراكية القومية الفتية».

لم يكن سيكت مهتما، بالمقابل، بـ«مجال حيوي» جديد أو بالاستيلاء على أراض بالمعنى المألوف. وقد تنصل في دراسته عن مولتكه بصراحة ووضوح من التطرف اليميني، ولم يفكر في مقولات واقعية عنيفة، بل تحرك على صعيد الإسقاطات المجردة للسلطة. ألم يكتب يوم 29 تشرين الأول عام 1915 في رسالة إلى فون فينفريد ـ منكن قائلا: «إن حدود السلطة ليست بالضرورة حدود البلد؟»[7]. لقد أراد الحفاظ على علامات حدود كثيرة في أوروبا، من أجل تأسيس مملكته الجديدة. لذلك لم ير في العالم الأنجلوساكسوني حليفا، بل العدو الأكثر خطورة: «إذا أراد المرء خوض الحرب وجب عليه رؤية عدوه. فمن هو ومن سيكون؟. إنه إنجلترا، أو إنجلترا الأكبر، أي بكلمات أخرى العالم الناطق بالإنجليزية بما في ذلك أميركا».

اعتقد سيكت عام 1915 أنه يعرف كيف ولأي هدف يمكنه خوض الصراع ضد الأعداء السياسيين العالميين الكبار: «لن تكون أميركا عرضة لهجومنا قبل أن تقدم التقنية لنا أسلحة جديدة كل الجدة، وكذلك إنجلترا نفسها، التي هي أضعف في أعضائها منها في قلبها. لذلك يجب أن يكون الطريق إلى آسيا مفتوحا. إن حلقة رغباتي تكتمل عندما يكون لدينا منطقة سيطرة تقع بين المحيط الأطلسي وفارس. إنني لا أريد «رايشا ألمانيا في هذه الحدود، بل ائتلاف دول مهتمة بنموها المتبادل». إن من يريد كسب صراع القارات، لا يحق له اضطهاد الآخرين، وعليه القيادة بحرص وعبر المثل الصالح.

تحذير لا طائل تحته

رفع سيكت صوته محذرا من سياسة هتلر. وحذر في دراسة نشرها قبل

7. هانس ماير ـ فيلكر: سيكت، ص 712.

فترة قصيرة من استيلاء الأخير على السلطة عنوانها «ألمانيا بين الشرق والغرب» من «الصراع الطبقي» و«الصراع العرقي»، وطالب عوضا عن ذلك بتحليل عقلاني للوضع الجيوسياسي[8]. كانت العلاقة مع روسيا بالنسبة إلى سيكت، مثلما هي بالنسبة إلى هتلر أيضا، «ذات أهمية مصيرية»، ولكن بمعنى مختلف كل الاختلاف لدى كل منهما. أصر سيكت أنه لا ليس بين البلدين تناقضات ترتكز على أساس جغرافي أو عرقي أو تاريخي، وقال نهاية عام 1932: أعلن بالسلطة الممنوحة له كأعلى ضابط في جيش الرايش، وكرجل أسهم بطريقة مؤثرة في صياغة العلاقات الألمانية الروسية، أن العسكريين هم الذين مهدوا للتفاهم بين ألمانيا وروسيا في جمهورية فايمار.

حذر سيكت من سياسة خارجية نازية ذات خلفيات أيديولوجية، يمكن لنزعتها المعادية للبلشفية أن تسبب ضررا سياسيا داخليا أيضا: «لن تنهار البلشفية في روسيا، إذا ما تخلينا عن اتفاقيتي رابالو وبرلين، لكنه سيكون لدينا في هذه الحالة عدو على الحدود، لن يكون تأثيره على أوضاعنا الداخلية قليلا». ثم تلي فكرة بعيدة النظر تراهن على التحول الداخلي في الاتحاد السوفييتي، قدر لها أن تبعث بعد عقود الأمل في «تبدل من خلال التقارب»: «أرد على من يعترض على ذلك بحجة أننا نقوي روسيا والبلشفية عبر تعاوننا الاقتصادي، بالقول: إن استعادة روسيا عافيتها الاقتصادية، ورفع مستوى معيشة شعبها العام يمكن أن يعيدا البلد إلى نظام مماثل لنظامنا، أما البتلرة المتفاقمة والأبدية فهي لن تنجز هذا إطلاقا». أخيرا، صرح سيكت بكلمات أحسن التفكير فيها عن الحزب الذي هدد أكثر من غيره العلاقات بين برلين وموسكو: «لقد صدرت غالبا تصريحات عن الجانب النازي يمكن أن تثير الانطباع بأنه لا يمكن التوفيق بين وضعية المعركة ضد الشيوعية وبين أخذ متطلبات السياسة الخارجية بالحسبان». وفي نهاية تحذيره الملح من

8. هانس فون سيكت: ألمانيا بين الشرق والغرب، هامبورج 1933.

«وقوعنا مرة أخرى بين عدوين»، يضيف السؤال التنبؤي: «هل يريدون أن تتقدم بولونيا إلى نهر الأودر؟».

وكان نيدرماير قد أكد في رسالة بعث بها عام 1926 من موسكو إلى سيكت: «أنه أدرك من صميم روحه وأكثر من معظم الناس ما يعنيه السيد العماد بالنسبة إلى ألمانيا وقضيتنا»، ووعد «برفع راية» سيكت السياسية المقدسة، وحافظ على هذا الوعد حين نشر عام 1933 مقتطفات من أطروحة الأستاذية في «مجلة الجيوسياسة»، التي كان يصدرها هاوسهوفر. أما مقالته «تأملات جغرافية عسكرية حول الاتحاد السوفييتي»، فأدخلته في نيسان 1933 إلى حلبة النزاعات الإعلامية حول سياسة ألمانيا الخارجية المقبلة. تلك كانت خطوة مفعمة بالمخاطرة على أرض خطرة، خاصة وأن مجلة الجيوسياسة زودت المقالة بملاحظة «تحظر إعادة طباعتها!»[9].

أيد نيدرماير مواصلة التوجه السياسي الأمني تجاه الشرق، بل إن عنوان مقالته كان بحد ذاته دفاعا عن السياسة السوفييتية: «أقول جغرافية عسكرية لأن مجمل المجال الكبير، الذي يسيطر الاتحاد السوفييتي عليه اليوم، مكرس للدفاع ومنظم بطريقة دفاعية». كانت سيطرة ستالين في نظر نيدرماير دكتاتورية تنموية: «يتطلب تحويل وبناء البلد العملاق تطورا طويلا وسلميا، ليس من السهل بلوغه نتيجة وضعه المعزول في محيط «رأسمالي» معادي». وأضاف: لا تهدد البلشفية الغرب، حسب أقوال قادة الكرملين، وإنما يخطط الرأسماليون الغربيون لإنهاء السيطرة البلشفية.: «لأنه ليس بوسعهم التفكير بأي طريق آخر غير طريق تدخل مشترك ـ لا تزال الذاكرة السوفييتية تحتفظ بمعارك التدخل بين عامي 1919 و 1921 ـ هو حرب صليبية تشنها القوى الامبريالية القليلة الأرض والجائعة إلى المستعمرات ضد دولة العمل والفلاحين».

9. أوسكار نيدرماير: تأملات جغرافية عسكرية حول الاتحاد السوفييتي، مجلة الجيوسياسة، العام العاشر، الدفتر الرابع (نيسان 1933)، ص 219 ـ 229.

بقيت الامبراطورية البريطانية عدو موسكو الأكثر خطورة. صحيح أنه لم يكن لها تماس حدودي مع الاتحاد السوفييتي، لكن هذا كان كقوة أوراسية قارية على تماس مع مصالح بريطانيا في جميع أرجاء آسيا. بالمقابل، لم تكن لندن راغبة في التقيد باتفاقات تحد من صراعها ضد البلاشفة، وكانت مستعدة لفعل أي شيء يقوض التقارب الألماني / الروسي. وقد وجد نيدرماير دليلا على صحة ما يقول هو كتاب ميلفيل «وجه ألمانيا الروسي»، الذي صدر قبل وقت قصير من استيلاء هتلر على السلطة.

دعا نيدماير إلى إبداء التفهم تجاه التسليح السوفييتي: «على روسيا الحالية بناء دفاعها الوطني بوسائلها الخاصة وبقوى فتية وجديدة كل الجدة، في ظل حدود غربية متغيرة وعلى أنقاض عالم قديم لن يعود أبدا. وقد أدركت منذ البداية ضرورة قيامها بعملية تسليح عسكري سريعة تضمن بناءها الداخلي السلمي»، ونظمت قطاعات اقتصادها الوطني المختلفة وفق مبادئ قيادية عسكرية. وقوّم نيدرماير بصورة إيجابية اقتصاد السوفييت المخطط وتوجيهه المركزي وقال: «إن ما أنجز إلى اليوم على صعيد تنظيم الدفاع الوطني وإقامة وتدريب الجيش الأحمر يستحق اعترافنا غير المحدود. إنه إنجاز يمنحنا الأمل بأن النواقص والعيوب التي لا تزال موجودة ستزول مع تقدم البناء الاقتصادي». في الختام، أنهى نيدرماير أفكاره كتابع مخلص لأستاذه سيكت: «لا تستطيع ألمانيا إلا أن تحيي البناء السلمي للامبراطورية العملاقة في شرقه، ولا تقدر إلا أن تدعمه لأسباب وصفها العماد فون سيكت في كراسته الأخيرة الموسومة «ألمانيا بين الشرق والغرب» بصورة دقيقة وصائبة. وكما تحتاج روسيا إلى عوننا التقني والسياسي من أجل بنائها الداخلي، نحتاج نحن إلى عون روسيا وصداقتها في الصراع ضد فرساي».

لم تجد سياسة سيكت، المدعومة من نيدرماير، أي صدى لدى هتلر، مع أن الثاني قال في محضر التحقيقات الأولى التي أجراها معه قاضي

مجموعة الجيش في أيلول من عام 1944: «ذهبت في صيف 1932 إلى محادثة دامت ساعات عديدة مع هيرمان جورينج، الذي كان يقرر سياسة الحزب الخارجية، ووجدت لديه تفهما عظيما لاقتراحاتي وشروحي»[10]. أبدى هتلر سلوكا عنيفا وعدوانيا تجاه الاتحاد السوفييتي، وطالب بمعاهدة عدم اعتداء مع بولونيا وبالتقارب مع الامبراطورية البريطانية.

غادر هانس فون سيكت ألمانيا وسافر نحو الشرق. لقد رحل إلى الصين، حيث كان ضباط ألمان يعملون خلال جمهورية فايمار مستشارين للجيش الوطني الصيني، وكسبوا بعض النفوذ لألمانيا هناك[11]، ووصل يوم 8 أيار 1933 إلى شنغهاي، واستقبل بالترحيب في بيت أحد ألمان الخارج. من نصح سيكت بهذا الـ فيلهلم تسايزر كمضيف؟. ربما كان الجنرال لا يعلم أن ضابط الحرب العالمية السابق في الجيش القيصري والرئيس المحلي لعصبة المحاربين الألمان المحافظة (الخوذة) منذ عام 1925 كان عميلا للاستخبارات العسكرية السوفييتية[12].

أعدت حكومة الصين الوطنية استقبالا ظافرا لهانس فون سيكت، الذي عرض أفكاره حول بناء جيش صيني قوي في مذكرة وجهها إلى تشان كاي شيك، اقترحت تحويل الجيش إلى أرضية اجتماعية للبلاد، مع جعل هيئة الضباط نخبة الأمة الصينية الحديثة، وقالت إنه يمكن بناء جيش يقبل المقارنة مع جيش الرايش، يكون حديث السلاح ومؤهل للنمو على المدى الطويل، بالتعاون الوثيق مع مستشارين عسكريين واقتصاديين[13]. حاول سيكت خلال رحلة ثانية من نيسان 1934 إلى آذار 1935 توسيع نفوذ ألمانيا الرسمي في

10. انظر محضر التحقيق يوم 28 أيلول 1944 في تركة الأستاذ الدكتور أرتور كونهس.
11. ويليام كيبري: ألماني وجمهورية الصين (بالإنجليزية) ستانفورد 1984، ص 113 ـ 120.
12. دافيد داهلين: الجاسوسية السوفييتية، ص 112.
13. وليم كيربي: مرجع سابق، ص 118.

الصين عن طريق وسائل أكثرها فاعلية التعاون القائم على الشراكة، والعون الاقتصادي والتقني ـ وقد نجح الجنرال في مسعاه، حسب تقدير أفضل خبير أميركي في العلاقات الألمانية الصينية.

طموح وعلم

عندما رحل سيكت إلى الصين عام 1933، بقي نيدرماير في برلين، حيث كان يتطلع إلى احتلال منصب أكاديمي. وقد ألقى مسؤولية قراره على كاهل وزير الحرب فيرنر فون بلومبرج، الذي نصحه أن يشتغل كعالم متخصص في الشؤون الدفاعية. كان بلومبرج يعرف نيدرماير، منذ زاره في موسكو خلال رحلة تفتيش قام بها على المحطات الألمانية في الاتحاد السوفييتي، وخرج بتقويم ملائم له: «تركت عام 1933 القوات المسلحة بإيحاء من وزير الحرب آنذاك الجنرال فيلد مارشال فون بلومبرج، كي أتولى العلوم العسكرية في الجامعة»[14]. تلقى نيدرماير منذ عام 1933 راتبا تقاعديا كعقيد، وصار عضو شرف في جمعية ميونيخ الجغرافية، إلا أنه لم يكن بعد عضوا في الحزب الاشتراكي القومي (النازي).

تلقى نيدرماير يوم 31 تموز 1933 الموافقة على تعليم الجغرافيا مع التركيز بصورة خاصة على الجغرافيا العسكرية. وكان قد اكتسب شهرته كضابط مؤهل علميا بفضل كتاب مصور أصدره عام 1924 بعنوان «أفغانستان»[15]، ناقشته الصحافة الألمانية والخبراء المختصون بحماسة. كان الكتاب تحفة في ما يتعلق بإخراجه الشكلي وطباعته، وقد كتب نيدرماير مقدمة قصيرة نسبيا له، بينما تولى شروحه التاريخية الفنية الأصلية ونتائجه البحثية زميله في رحلته الأولى إلى فارس مؤرخ الفن النمساوي إرنست ديتز. احتلت الصور أهمية كبيرة في الكتاب، وخاصة منها الخرائط التي أعدها

14. انظر كتاب نيدرماير بتاريخ 14 تشرين الثاني 1938 في ملفه الشخصي.
15. أوسكار ريتر فون نيدرماير: أفغانستان، لايبزيج 1924.

نيدرماير عن مواقع مستقرات قديمة لم يسبق لأحد أن زارها، فجاءت خرائطها وصورها مدهشة في نوعيتها، رغم أن بعضها أنجز خلال فترة قصيرة جدا، كان نيدرماير كان يعد نفسه أثناءها لعبور تركستان الحافل بالأخطار.

تُحدث جريدة لايبزيج اليومية عن «حدث». ونشرت جريدة لايبزيج نقدا عن «هذا النصب التذكاري لإرادة الإبداع الألمانية»[16]. وأعلن أحد خبراء الكتب قائلا: «هذا العمل هو أول إصدار من هذا النوع والحجم عن أفغانستان، يفتقر الإنجليز أنفسهم إلى ما يجاريه أو يماثله، لذلك يحق للعلم الألماني الاعتزاز به، وكذلك للمؤلف ودار الطباعة». ووجد ديرجالسكي، أستاذ نيدرماير، أن قراءة الكتاب ليس بغير ما سبب «متعة مميزة». بينما تحدث سفن هالدين، أعظم باحث سويدي في الشؤون الآسيوية، عن «كنز حقيقي»، وامتدح فريدريش ساره، مدير المتحف الإسلامي في برلين، العمل باعتباره «كتابا لا يجارى»، واستغل ألبرت فون لو كوك، رئيس بعثة طرفان الألمانية، الذي لا زالت لقاه من النقوش تعد اليوم أيضا من كنوز برلين، مناقشة الكتاب في جريدة الأدب الشرقي ليقوم بقراءة متأنية للأعمال الفنية المصورة، مقدما بذلك إنجازا علميا قائما بذاته.

لاحظ أحد مراجعي الكتاب بخصوص صوره المثيرة: «تبدو بعض هذه الصور، التي التقطت بنظرة مناسبة وحب لا نهائي كلوحة مرسومة وعمل فني كامل». فهل عرف كاتب التقويم أن نيدرماير لم يصور فقط، بل كان يرسم أيضا؟[17]. مهما يكن من أمر، كان نيدرماير مصورا متحمسا، وقد احتفظ مرافقه السابق بكاميرا لايكا، التي كان يستخدمها، كتحفة تذكارية ثمينة أهداها إليه رئيسه المبجل[18]. غير أنه من المرجح أن القراء لم يعرفوا أن

16. توجد التقويمات المجموعة في أرشيف الحرب بميونيخ تحت رقم 2510.
17. توجد لوحات نيدرماير في التركة في أرشيف الحرب بميونيخ.
18. يمتلك الكاميرا اليوم العقيد المتقاعد كونراد باهر، الذي يعيش في نويبرج.

نيدرماير لم يلتقط غير ثلث الصورة تقريبا، وأن البقية التقطها مصور البلاط الملكي الأفغاني، أو تم شراؤها من الضابط النمساوي إيميل ريبيتشكا، الذي كان قد فر من الأسر الروسي إلى كابول[19]. كان كتاب أفغانستان عملا فنيا أسهم نيدرماير في تكوينه، شأنه في ذلك شأن كتاب ديتز عن تماثيل خرسان.

أعلم نيدرماير يوم 11 تشرين الأول عام 1933 وزير العلم والفن والتعليم الشعبي البروسي أنه بدأ نشاطه التعليمي. وأخبره أنه عازم على إلقاء محاضرات في الفصل الدراسي الشتوي 1933/ 1934 عن الجغرافيا والسياسة العسكرية، الاختصاص الجديد، الذي تفتقر جامعة برلين إلى أية مواد حوله، ربما لأن الجامعات الألمانية، وخاصة منها جامعة برلين، لم تكن قد تعسكرت آنذاك بعد. لم تكن الجامعة على تماس مع المسائل أو الموضوعات العسكرية، رغم قربها من بيت السلاح وثكنة فوج ألكساندر وحراسة شنيك الجديدة. إن الفصل الطبيعي بين مجالات الحياة والبحث والمجتمع، وعدم وجود تفاعل بين النخب السياسية والعلمية والعسكرية في ألمانيا، كانت لهما نتائج عملية: منها افتقار جامعة برلين إلى خرائط يمكن استخدامها أو أدبيات متخصصة في السياسة العسكرية. لذلك، طلب نيدرماير 300 مارك لشراء مواد، وأجيب طلبه يوم 21 تشرين الأول عام 1933.

أعد نيدرماير محاضراته بعناية. إنه لم يكتب نص المحاضرة، بل اكتفى بكتابة كلمات أساسية ومكونات جملية على الآلة الكاتبة، فلم يقرأ في القاعة من نص جاهز بل تحدث بحرية متكئا على مخطوطات المحاضرات كمرتكز لأفكاره. أما حجاجه، فكان منظما ومنسقا، وواضحا في ذهابه إلى النتائج والخواتم. وقد كثف في نهاية مخطوط محاضراته عن «السياسة الخارجية» موقفه المبدئي من روسيا في جمل مختصرة ورؤوس أقلام: «إن كراسة

19. انظر المراسلات في تركة ريبتشكا. وقفية معهد أفغانستان السويسري. المكتبة الأفغانية.

سيكت «ألمانيا بين الشرق والغرب»: العلاقة مع روسيا مصيرية بالنسبة إلينا ومثقلة بالأقدار». سيكت كجيوسياسي. ألمانيا دفعت ثمنا فادحا بسبب خطأ سياستها الروسية[20].

انتقد نيدرماير بصراحة سياسة القيادة النازية تجاه روسيا: «تمارس ألمانيا الرسمية حاليا موقفا يقوم على تحفظ مؤسف. تحتاج ألمانيا إلى روسيا وبالعكس». ثم أضاف إلى ما كتبه بخط يده: «وكذلك في أوقات الأزمات!». ثم استشهد بمسلمة سيكت: «أبقوا ظهري طليقا!». وأكملها بخط يده: «ألمانيا بين الشرق والغرب، لكنها ليست حيادية ودون أي ارتباط مع أية جهة!. عزلة مدهشة (بالإنجليزية). لا إنقاذ من الغرب. يتطلب النضال ضد فرساي ومن أجل حدود ألمانيا الشرقية ارتباطا وديا مع روسيا». ثم أتت تكملة أخرى في وقت لاحق كتبها بقلم رصاص مدبب: «مصافحة وأنخاب بين أربعة جدران». وختم بنداء «عاش القنصل».

كان نيدرماير يعرف أن الانطباعات المتنوعة، التي كونها خلال سنوات إقامته السبع في موسكو، لن تجعل تحديد موقفه الخاص سهلا، وشعر أن سنوات موسكو كانت أحيانا عقبة في وجه التحليل العلمي. إن امتلاء الذكريات، والصور التي تغيرت دون توقف أمام عينيه جعلت من الصعب قيامه بالتجريد الضروري، وبتلمس خطوط التطور السياسي الكبرى: «هكذا جرى لي ما جرى لبعض الآخرين: كلما عاش المرء فترة أطول في روسيا، وغدت انطباعاته أكثر تنوعا، كلما صار من الأصعب إدراك الحياة الروسية الغريبة عنا والظواهر الثورية للدولة السوفييتية».

لا يجعل رفاق الأحاديث والأصدقاء والمعارف التفكير حول روسيا أكثر سهولة، بل هم لا يتركون له أية فسحة للهدوء بما يضفونه عليه من

20. أرشيف الحرب في ميونيخ، الرقم 2509، الفصل الخامس.

فضول ويطرحونه من أسئلة. وقد شكا نيدرماير قائلا: «لا يمر يوم دون أن يسألني أحد ما عن حكمي على الاتحاد السوفييتي، «أخبرنا من فضلك كم من الزمن سيبقى...؟». في مواجهة هذه الكلمات، التي كثيرا ما أسمعها، يحرص وجهي على رسم ابتسامة محايدة احجب من خلالها حيرتي وسخريتي في آن معا».

حسب نيدرماير على الدوام حساب السؤال عن المدة التي سيستطيع النظام البلشفي البقاء خلالها في موسكو: «من المؤكد أن هذا هو السؤال الأكثر غباء الذي يمكنني التقاطه من بين جميع الأسئلة». وقد رد عليه بطريقة يفهم منها أنه يعرف مناهج السياسة اللينينية. فقد قيل إن لينين رد على سؤال طرحه عليه فيليكس دزرجنسكي: كيف يمكن للاستخبارات البلشفية أن تنشر معلومات كاذبة، بالقول «أخبر الناس بما يحبون سماعه». بهذه الطريقة نفسها تصرف نيدرماير، عندما قال: «إنني أحرص عندئذ على طرح سؤال معاكس يؤكد لي ما يريد السائل معرفته انطلاقا من موقفه السياسي أو سواه، لأجيبه بما يتفق وقناعاته، ونكون نحن الاثنين راضين: هو لأنه سمع ما أحب سماعه، وأنا لأنني سأتخلص منه قريبا».

لم يترك نيدرماير أي شك خلال محاضراته حول أن روسيا السوفييتية تمثل بالنسبة له تجربة سياسية واجتماعية مدهشة، وأنها لا تشكل خطرا على ألمانيا. وقد دوّن في مخطوطاته الأفكار والأسئلة التالية: «نوايا شريفة لأصحاب السلطة السوفييتية. لا روسنة بل تشريك. ـ هل التأليف بين الشيوعية والقومية ممكن؟. شكل جديد من تعايش الشعوب يتخطى الدولة». ثم استأنف تطوير أفكاره «لا مجال للحديث اليوم وفي المستقبل المنظور عن تهديد امبريالي للغرب. أترك في هذا السياق خارج حقل نظري سؤال الثورة العالمية الفرعي والسؤال عن التطور الداخلي الخاص للغرب الأوروبي. من يجرؤ على التنبؤ وسط حدث عملاق كالذي نراه اليوم؟». ثم يضيف بخط يده ملاحظة نقد ذاتي إضافية: «لقد اجتزنا قطعا إطار التشخيص».

رأى نيدرماير في سياسة القوميات والاقتصاد المخطَّط السوفياتي تخطيطات مؤثرة وتصورات مكانية جسورة تتجاوز القوانين السياسية والاقتصادية للغرب الرأسمالي القديم، فالأهداف البلشفية ذات أبعاد أوسع بما لا يقاس، وهي تحتقر التقليد، وتنتشي بالأفكار الأميركية عن الأرقام القياسية، مع أنها بقيت مرتبطة في الوقت نفسه بالأرض. لماذا كان من الصعب التعرف على مضمون وقيمة التجربة الثورية خلف واجهة الدولة السوفييتية؟. إن دعاية البلاشفة هي المسؤولة عن ذلك في نظر نيدرماير، لأنها اقتصرت على «جمل ماركسية ـ بلشفية»، وتجاهلت أن روسيا الجديدة ليست «جنة سوفييتية»، بل هي سلطة دولة خاصة تتبع أكثر فأكثر آثار سياسة السلطة الروسية الكلاسيكية: «هذا ما لا يفهمه الشيوعي الألماني، الذي لا يفتأ يناضل ضد الدولة وليس في نيته تكوين دولة خاصة به». غير أن احتقار نيدرماير انصب على السياسيين، الذي استهانوا، كهتلر، بالخطر الشيوعي. إن شبح الخطر البلشفي المزعوم لا يجوز أن يصير نقطة ارتكاز أو انطلاق السياسة الألمانية: «ربما كان البرجوازي الألماني التافه بحاجة إلى هذا الشبح، لكن الجندي، وأكثر منه رجل السياسة الخارجية يجب أن يحاول معرفة القوى الحقيقية بطريقة صاحية وواضحة».

ماذا كانت القوى الحقيقية المؤثرة في روسيا السوفييتية؟. هل هي الأسرار، أم النزعة المحلية العميقة للشعب، أم إرهاب الشرطة السرية؟. مثلما أشار معلمه جورج ياكوب ذات يوم في إرلنجن إلى هذه الظواهر الغريبة، أشار هو اليوم في برلين إليها أيضا، وقال إن الغرب المستنير يعجز عن الانضمام إليها إلا بصعوبة: «الدين (والاستخبارات): ليس هناك ما يحاط أكثر منهما بالأسرار، لأن الانضمام إليهما يحدث على الطريقة الروسية التقليدية التي لا تعرف حدودا. الكنيسة ميتة، وهناك كنائس كثيرة في طور الصيرورة. تخفيف الملاحقات الأمنية بسبب الثورة العالمية. كنيسة المخلصين. ضريح لينين: عبادة بربرية سحرية. الشيوعية الروسية؟. هل

سينجح القوم على المدى الطويل في امتصاص الدوافع الدينية ثوريا؟».

عالم الحداثة

نشر نيدرماير صيف عام 1933 في «مجلة الجيوسياسة» التي يصدرها هاوسهوفر، حصيلة سنواته في موسكو وأجزاء كبيرة من أطروحته، عالجت مشكلة مركزية من مشاكل الجغرافيا الأنتروبولوجية تتعلق بأبحاث الهجرة، دار موضوعها حول «النمو والهجرة في الجسدية الشعبية الروسية»، وتركز على تطور روسيا السكاني، وعلى حركات الهجرة في أوراسيا وعلاقة الإنسان بالتحديث والبيئة[21].

لامس نيدرماير في أطروحته مسألة يبحث العلماء اليوم أيضا عن أجوبة لها هي أثر تبدل المناخ ومسؤولية الإنسان عن تبدل بيئته في مناطق الهضبة الإيرانية القريبة من الصحراء. كان نيدرماير يعي هذا الأثر بفضل أسفاره عبر إيران وأفغانستان كما لم يعه غير قلة من معاصريه[22]. وقال: «إن التبدل الفريد في هضبة صحراوية كالهضبة الإيرانية يمكن أن يفهم فقط من خلال دراسة دقيقة للمناخ. ولن يجانب المرء الصواب إن اعتبر بلدا كإيران وظيفة من وظائف المناخ، ورأى في تأمل ظروفه المناخية أساس أية تأملات تالية حوله».

درس نيدرماير باختصار وألمعية بواسطة «الأحواض الداخلية للهضبة الإيرانية» جفاف المنحدرات الإيرانية الكبرى، وبحث إن كان نتاج تبدل المناخ في الزمن التاريخي، وقارن الأطروحة التي ترجع الجفاف إلى تذبذب المناخ مع ملاحظات جغرافية خاصة كان قد قام بها، تقول إن جفاف الهضبة

21. انظر نيدرماير: النمو والهجرة في الجسدية الشعبية الروسية 1/ حتى الحرب العالمية. مجلة الجيوسياسة. العام الأول، الدفتر السادس (حزيران 1933)، ص 334 ـ 248. ثم الجزء الثاني، في المجلة ذاتها، الدفتر السابع (تموز 1933)، ص 402 ـ 415.

22. نيدرماير: الاحواض الداخلية في الهضبة الإيرانية. أطروحة دكتوراه. ميونيخ 1920، ص 21.

الإيرانية نتج أيضا عن تغير مجاري الأنهار، وتدمير وإهمال مرافق الري، والحملات الحربية الرهيبة، ومظاهر الانحطاط الاجتماعي. باختصار: أن البشر والأحداث الاجتماعية يمكن أن يسبب تبدل المناخ. عارض نيدرماير التفسيرات الواحدية، وأوضح صعوبة التمسك بأطروحة التبدل المناخي في الزمن التاريخي كسبب رئيس للجفاف، ورأى أن العالم لا يجوز أن يقبل الفكرة التي ترى في «تذبذبات المناخ أحادية الجانب السبب الرئيس لظواهر الجفاف في إيران».

لم تكن حركات الهجرة، التي بحثها نيدرماير في أطروحته، وليدة قرارات سياسية، بل كانت نتيجة أحوال اقتصادية سيئة. يقترب عالمنا هنا من تصور الماركسية التاريخي، وتبدو صياغاته قطعية من حين لآخر، لكن التطورات الراهنة تؤكد تحليله وتشخيصه: «إن الضائقة الاقتصادية هي السبب الرئيس لهجرة البشر والشعوب، سواء كانت ترجع إلى أسباب مناخية، أم إلى فائض سكاني، أم إلى تدابير تتخذها الدولة، أم إلى تأثيرات معادية أم إلى أحداث حربية. يهاجر الإنسان إلى مناطق يأمل أن تتيح له عيشا أفضل من منطقته الأصلية، متتبعاً بذلك خط المقاومة الأدنى».

ليس هناك شعب عرف خلال تاريخه الحركة التي عرفها الشعب الروسي، بل إن تاريخ روسيا بأسره يمكن فهمه كتاريخ استعمار واستيطان، هو الذي عيّن مسار تطور الدولة والشعب الروسيين بما يتخطى منطقة استقرار روسيا الأصلية وصولا إلى المناطق المجاورة كالقوقاز الشمالي وآسيا الوسطى ومناطق الشرق الأقصى السيبيرية. قسَّم المؤرخ الروسي الكبير كلويتشفسكي التاريخ الروسي إلى حقب انطلاقا من تطور الاستيطان، فأخذ نيدرماير عنه منطلقه هذا ليرسم صورة مختلفة عن أسباب الاستيطان ونتائجه. أما حرب الهجرة القوية التي عرفتها فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، فكانت بالنسبة إليه النتيجة الاجتماعية المباشرة لجهود التحديث الاقتصادي التي قام بها ستوليبين بعد عام 1905.

وصف نيدرماير بكلمات قوية نجاحات ونتائج سياسة ستوليبين التحديثية، التي دمرت الملكية الفلاحية المشتركة، وبدأت عمليات تجميع الأراضي الزراعية، وأعطت المزارع الجديدة كملكية خاصة إلى الفلاحين، وقدمت دعما خاص إلى الفلاحين الأكثر نشاطا وعملا. أزاحت إمكانية بيع قطع الأرض التي تحولت إلى ملكية خاصة العقبة الرئيس من أمام حراك اجتماعي أكبر، فباع الفلاحون الصغار أراضيهم إلى فلاحين كبار أقوياء ماليا، لتكون النتيجة تمايزا اجتماعيا قويا فتح الطريق أمام بتلرة فلاحية خطيرة. مع ذلك، ارتفعت عوائد الأرض وأنعش الطلب على آلات زراعية الصناعة، التي اجتذبت بدورها قسما كبيرا من فائض قوى العمل الريفية.

رأى نيدرماير أن ستوليبين انتهج دربا مفعمة بالمخاطرة، وقلّص فائض السكان الزراعيين في المركز الروسي من خلال تهجيره إلى المناطق الآسيوية وتكثيف الزراعة وتوسيع الصناعة. لكن هذه السياسة توقفت في بداياتها، وعجلت باختلال مملكة القياصرة، لأن بتلرة طبقة الفلاحين الصغار عززت الاستعداد الثوري للطبقة العاملة. هكذا وجد اقتصاد روسيا ومجتمعها نفسيهما قبيل الحرب العالمية الأولى في منطقة محايدة تقع بين الاندماج في الاقتصاد العالمي والطموح السياسي إلى القوة وبين الانحلال الاجتماعي. والحق، إن قسما من الاقتصاد الروسي، استند على رأس المال الأجنبي وارتبط به، كان موجها بالفعل إلى السوق العالمية، بينما كان تحديث ستوليبين مصحوبا بنزعة قومية ذات اقتصاد دولوي الطابع وأيديولوجية وسياسة خارجية إمبرياليتين، لم تنسجما بأي معيار مع واقع قوى البلاد الحقيقية. لهذه الأسباب مجتمعة، لخص نيدرماير الوضع بالقول: «كانت روسيا قبل الحرب العالمية الأولى ناضجة كل النضج للثورة».

حلل نيدرماير بالتفصيل تطور وتحركات السكان بعد استيلاء البلاشفة على السلطة، فتجاوزت تأملاته التأكيد الصرف على الوقائع المباشرة، ودعت من جديد إلى سياسة سلام وتعاون مع روسيا السوفييتية، وأظهرت مرة

أخرى تعاطفه العميق مع الشعب الروسي: «إن ضمان السلام الخارجي سيمكن البلاد من الأخذ بتطور اقتصادي أبطأ بكثير، وأكثر توازنا وصحة، عندئذ، قد يتحقق السلام لشعب روسيا المعذب، المقتلع من أرضه، التائه دوما بين هنا وهناك، والباحث عن أشكال جديدة من الحياة».

اجتاز نيدرماير أخيرا حدود الاتحاد السوفييتي في مقالته الموسومة «منشوريا»، التي ظهرت في كانون الأول عام 1933، ووجه أنظاره نحو البلد الحدودي والانتقالي، الواقع بين الامبراطورية اليابانية والصين وروسيا[23]. تحول إقليم الصين الشمالي بعد الحرب العالمية الأولى إلى هدف للتوسع الاقتصادي الياباني، بعد تقسيمه عام 1905 إلى منطقة نفوذ روسية وأخرى يابانية. وكان التوسع الياباني قد بلغ عام 1931 / 1932 بعدا جديدا مع احتلال منشوريا عسكريا وإعلان دولة دمى فيها عام 1934 تحت اسم «المانشوكو» خضعت لسيطرة الجيش الياباني، مع أن فتح المنطقة بواسطة طرق المواصلات كان منذ نهاية القرن التاسع عشر أساس سائر العمليات العسكرية وطموحات السيطرة السياسية. وكما كان الأمر لدى بناء سكة حديد بغداد في الامبراطورية العثمانية، ارتبط الاقتصاد وإدارة الحرب أوثق ما يكون الارتباط ببناء سكة حديد منشوريا. وقد درس نيدرماير هذا البلد الآسيوي البعيد من منظورات سياسية واقتصادية وديموغرافية ومواصلاتية، وعرض نوايا جميع القوى المجاورة له، وشرح فرص نجاحها أو فشلها من منطلق جيوسياسي، وفسر ما يجري فيه بطريقة مقنعة.

حذر نيدرماير في أيار عام 1934 في مجلة «دفاتر ويسترمان» الشعبية من أن تراجع الاتحاد السوفييتي في آسيا يتناقض مع مصالح ألمانيا، وقال: «من غير الممكن أن يكون هذا ملائما لنا أو لأوروبا الصغيرة المساحة، التي

23. انظر مقالة «منشوريا» في مجلة الجيوسياسة، العام العاشر، الدفتر 12 (كانون الأول 1933)، ص 707 ـ 717.

مزقتها بقوة معاهدة فرساي»[24]. وعلى الرايش الألماني إقامة توازن مصالح بين موسكو وطوكيو: «إذا نجحت اليابان في إعادة صياغة روابطها الاقتصادية مع الصين، وتوصلت إلى توازن سلمي مع روسيا، فإننا سنرحب بذلك من وجهة النظر الألمانية». إن امبراطورية يابانية غير مقيدة عسكريا على البر الآسيوي، ستنقل توسعها إلى المحيط الهادي، لتواجه هناك عدو ألمانيا الحقيقي والخطير: «عندئذ، ستكون القوى الأنجلوساكسونية هي التي ستعاني من توسع قوة اليابان، التي لا يمكن وقفها».

بخلاف هتلر، نظر جيوسياسيو ألمانيا في حينه إلى ما وراء الأفق الأوروبي ببعيد، فتابع خبير اليابان كارل هاوسهوفر السياسة اليابانية بتعاطف، وقدم سيكت خبرته كمستشار استراتيجي إلى تشان كاي شيك، ونظر نيدرماير ببعد نظر إلى المستقبل، الذي أعتقد أنه سيكون في صالح الصينيين دون منازع، بسبب التطور الديموغرافي في منشوريا: «يتخلف اليابانيون والروس والكوريون كثيرا من حيث عددهم عن الصينيين، الذين يشكلون مع ألمانشو، أقربائهم القبليين الذين يعيشون كقلة صغيرة في عزلة وعدم اختلاط مع الآخرين، 95 ٪ من شعب يبلغ عدده 35 مليونا من البشر». هذه السلسلة من المقالات، التي نشرها نيدرماير عام 1933، أثبتت أنه أحد أكثر الألمان معرفة بالاتحاد السوفييتي وآسيا.

لكن نيدرماير كان مهددا بربط نفسه أكثر مما يجب بمجلة الجيوسياسة، لذا حاول نشر نص محاضرته الأولى كأستاذ في مجلة أخرى، ولم يتخل عن عزمه إلا بعد «رسالة ليلية ودية غاضبة» تلقاها من هاوسهوفر في تشرين الأول عام 1935.

أخبر نيدرماير يوم 29 تشرين الأول عام 1933 صديقه عن مشروع سيقوم به بمشاركة المهاجر الروسي يوري سيميونوف، مؤلف الكتب الناجحة

24. انظر: الجبهة في الشرق الأقصى. في «دفاتر ويسترمان». أيار 1934، ص 261، 265.

عن التاريخ الروسي. واعتقد أن من الملائم «التأثير في النقاش العام بطريقة موضوعية تخلو من الأحكام المسبقة، بالنظر إلى سياسة حكومة الرايش الجديدة المعادية للسوفييت»، على أن تصدر الكتب في أسرع وقت ممكن، لاعتقادنا أنها ستكون ذات قيمة بسبب موقفنا الراهن خاصة. وقد حاولنا الكتابة بطريقة تمنع الجانبين الألماني والروسي من اتهامنا بالافتقار إلى الموضوعية»[25].

كان نيدرماير يبحث عن تغطية أعتقد أنه قد يجدها لدى رودولف هيس، صديق هاوسهوفر. لذلك رجاه: «ربما كان من المستحب في الظرف الحالي أن تحصل على موافقة صديقك هيس، وأن تكتب مقدمة للكتاب»، الذي ما لبث أن ظهر مطلع عام 1934 في مطبعة كورت فوفينكل تحت عنوان «روسيا السوفييتية. عرض مشكلات جيوسياسي» مع كلمة تمهيدية بقلم هاوسهوفر، الذي أطلق العنان لقلمه.

تسبب ميل هاوسهوفر إلى المشروع الكبير الملئ بتخطيطات أولية في جعل لغته، التي تذكر بالأشكال الصورية لأسلوب الشباب، تطرح متطلبات علمية لم يكن بين مقاصد الكتاب الموجه نحو الوقائع وتحقيقها: «إلى جانب التكوينات الجبارة، الطبيعية والواثقة من المستقبل، يجب كذلك إبراز السمات الجلية، سواء نحتت من صخر أم شكلت من طين رخو، التي تكاد تذكر بذلك الوجه الأسطوري للـ«غولم»، الإنسان الآلة، الذي هو مزيج من أوروبا والشرق الأدنى». رغم التلوين الأدبي الذي وسم لغته، نجح هاوسهوفر في بث حراك سياسي معقول في نهاية مقدمته اختلف عن توجه نيدرماير الشرقي الأحادي الطابع. ليس التعاون مع الاتحاد السوفييتي غير مجرد خيار، عقيدة، في نظر هاوسهوفر، الذي لم يكن له من قصد غير إظهار الاتحاد السوفييتي «كصديق محتمل، أو كعدو أو كثالث ضاحك»، مع

25. رسالة نيدرماير يوم 29 تشرين الأول 1933 في تركة هاوسهوفر. الأرشيف الاتحادي.

أنه اتفق مع نيدرماير في الطموح إلى رؤية بشر الاتحاد السوفييتي كما كانوا حقا، «وليس كما تصورهم دعايتهم الخاصة، أو يقدمهم كارهون يملؤهم الحقد يبالغون تارة ويستهينون بالواقع تارة أخرى».

وصل الكتاب يوم 29 آذار عام 1934 إلى مكتبة المبعوث الأميركي في ريجا، حيث كان يعمل أفضل خبراء روسيا من الأميركيين، قبل استئناف العلاقات الديبلوماسية بين واشنطن وموسكو. وكما يتبين من ملاحظاتهم الكثيرة ومن مقتطفات الصحف التي أوصلوها إلى بلدهم، قرأ الأميركيون كتاب نيدرماير بعناية، واستخدموه بصورة متكررة كمرجع. وتوجد اليوم نسخة منه في مكتبة الكونجرس في واشنطن. أما خلال الحرب العالمية الثانية، فقد نصحت دراسة ظهرت عام 1942 بعنوان «جنرالات وجغرافيون: إلتباس الجيوسياسات» بقراءة كتاب نيدرماير باعتباره «تلخيصا متألقا لمواد واقعية هائلة الحجم» و«دراسة جيوسياسية على درجة عظيمة من التمكن»[26].

قلق نيدرماير، رغم التأكيد على موضوعية كتابه. وقد أخبر هاوسهوفر يوم 25 كانون الثاني عام 1934 عن خشيته من «أن لا يستقبل الكتاب بطريقة ودية في جميع دوائر الحزب»، واعتقد أنه سيكون بين نقاده الفريد روزنبرج وهيرمان جورينج. لذلك رجا هاوسهوفر إرسال نسخة على سبيل التجربة مزودة بالكلمات المناسبة إلى رودلف هيس، على أن يتم ذلك بالسرعة الممكنة، لأنه كان يريد أن يكون في وضع يمكنه من القول: «إن نائب الفوهرر» قرأ الكتاب ولم تكن لديه اعتراضات على نشره.

يبدو أن نيدرماير كان لديه سبب يدفعه إلى طلب مساندة هاوسهوفر، فقد سعى خلال عام 1933 إلى الدخول في الحزب النازي، لكنه واجه مصاعب سياسية. ساند هاوسهوفر صديقه، مع أنه هو نفسه كان مستبعدا

26. هانس فايجرت: جنرالات وجغرافيون. إلتباس الجيوسياسات فريبورت، نيوجرسي 1972 (الطبعة الأولى عام 1942).

بصورة مسبقة من الحزب، بسبب خلفية زوجته اليهودية. عندما بقيت مساندته دون نتيجة أول الأمر، شكره نيدرماير في نهاية تشرين الأول من عام 1933 على مساعدته الودية «في قضية عضوية الحزب»، وقال في الوقت نفسه: «لكنني سأنتظر بهدوء من اليوم فصاعدا قدومها هي إلي». وهكذا كان، ففي نهاية عام 1933 قبل نيدرماير في الحزب برقم عضوية مرتفع هو 1801063.

كان نيدرماير يعرف الشخص الذي يجب عليه شكره من أجل هذا القرار المهم لأمنه ومساره العلمي. وقد كتب يوم 25 كانون الثاني 1934 إلى هاوسهوفر يقول: «قبلت خلال الفترة المنصرمة في الحزب، وأود أن شكرك مرة أخرى من أجل وساطتك الودية، ولدي رغبة أيضا في التعبير عن شكري لهيس». كان نيدرماير يتطلع إلى إقامة صلة شخصية مع نائب الفوهرر: «هل تستطيع إسداء النصح لي حول الطريقة التي ستمكنني ذات مرة من لقاء هيس؟. إنني لا أريد شيئا لنفسي، بل أود تقديم النصح من حين لآخر حول مسائل السياسة». لكن النظام النازي كان يرفض نصائحه.

تدشين نصب تذكاري[27]

«أنت نيدرماير أيها السمين، أليس كذلك؟». كان الدكتور فريتز نيدرماير يقف بوزنه الزائد وعرقه المتصبب في شمس ظهيرة يوم 26 آب من عام 1934 على الرصيف الوحيد لمحطة قطار كيرشنلاميتس، وهو مكان صغير في فرانكن العليا. بهذه المودة الفظة حياه شفابي يضج بالحيوية يعلو جسمه المتين رأس ضابط اشتعل شيبا. كان الرجل هو الرائد المتقاعد فريتز كلاين، الذي كانوا يسمونه قبل عقدين «البيك الصغير»، والتقاه فريتز نيدرماير للمرة الأخيرة في شباط من عام 1915 على ضفاف دجلة، حين كان

27. تابع الرسالة التفصيلية التي بعث بها فريتز نيدرماير إلى زوجته من إيجر بتاريخ 29 آب 1934. في تركة فريتز نيدرماير.

راجعا من عبدان، حيث حاول ومجموعة صغيرة عبثا نسف مصافي النفط البريطانية. وقف المحاربان القديمان الآن وجها لوجه على رصيف محطة قطار خال من البشر، تحت حرارة شمس بعد ظهر يوم أحد.

ثمة مناسبة خاصة قادت السيدين إلى هذا المكان القصي، هي تدشين نصب تذكاري في كيرشنلاميتس تكريما لقتلى «مقاتلي الشرق» الألمان. تلك كانت نتيجة مبادرة خاصة لا علاقة لها بسياسة الرايش الثالث، فقد كان أندرياس رول عضوا في بعثة كلاين إلى دلتا الفرات ودجلة، وهو ابن صاحب محجر من كيرشنلاميتس أصيب عند تراجع البعثة الملئ بالمغامرات بجراح شديدة ووقع في الأسر البريطاني. ويرجع الفضل إليه وإلى أبيه في إقامة النصب الضخم وغير المقنع جماليا، الذي أخذ شكل أعمدة تسعة تحمل الكلمات التالية: العراق ـ أفغانستان ـ إيران ـ إلى بعثات الشرق التابعة للأركان العامة الكبيرة.

كان النص مخادعا، فالأركان العامة الكبيرة لم تكن هي التي خططت بعثة كلاين ونيدرماير، بل اقترحها المدني ماكس فون أوبنهايم. كما شكا العسكريون في تشرين الثاني 1918، وعلى رأسهم هانس فون سيكت، من سوء تخطيط الحملات وسوء اختيار أعضائها. لكن الأحداث غابت في الذاكرة، ونسي القوم أن غرض البعثات كان الانخراط في «حرب المسلمين المقدسة»، في «الجهاد»، مثلما نسوا على ما يبدو دور أنور باشا، والشجار الطويل الذي نشب حول الصلاحيات والمسؤوليات. أخيرا، لم يعتبر المحاربون القدماء المجتمعون في كيرشنلاميتس أنفسهم محرضين ومخربين. صحيح أن أعضاء البعثات العسكرية كانوا خاضعين لأركان الجيش الألماني العامة الكبيرة، لكن الخطأ التاريخي المنقوش في الصخر لم يعكر فرحتهم بلقاء بعضهم البعض.

سار المحتفون صباح يوم الأحد بقبعاتهم العالية وأوسمتهم إلى

الكنيسة، بعد تناول إفطار مترف، يتبعهم في طابور طويل اتحادات المحاربين والفرقة الموسيقية المحلية وميليشيا الحزب النازي المسماة س آ. ثم ذهب القوم بعد الصلاة إلى النصب التذكاري، الذي برز خارج المكان وكان يمكن رؤيته من مسافات بعيدة وهو يتوسط مرجا أخضر يميل إلى الارتفاع وسط تلال مكسوة بالأشجار. كتب فريتز نيدرماير: «كانت النظرة الأولى ذات تأثير هائل» لا يماثله غير تأثير نصب ضحايا تمرد هتلر يوم 9 تشرين الثاني 1923، الذي توسط ميدان الأوديون في ميونيخ.: «. . . أجد مجالا واحدا للمقارنة بينهما هو أن نصب ميونيخ لا يعطي الانطباع ذاته بالضخامة، بسبب أعمدة قاعة سادة الحرب العملاقة».

إلى هذا، كان للنصب في كيرشنلاميتس ميزة الموقع التي لا تقدر بثمن، فقد أقيم على مقربة مباشرة من الخط الحديدي الأكثر استخداما في ألمانيا، الذي يربط ين برلين بميونيخ. بعد وضع فريتز نيدرماير باقة من الزهور على النصب «بتكليف من قائد بعثة أفغانستان» أوسكار نيدرماير، أجاب في المأدبة التي تلت ذلك على سؤال: «لماذا أقيم النصب في كيرشنلاميتس، فأقنعت إجابته الحاضرين جميعهم.: «والآن، ونحن نرى هذا النصب المهيب بحضوره الطاغي وبروزه، وهو يقف قرب أعظم خط حديدي في ألمانيا، نعلم أن موقعه هنا أفضل من أي موقع آخر». كان السائحون الأجانب جميعهم يمرون بالنصب وهم في طريقهم من برلين إلى الجنوب، وقد قال فريتز نيدرماير بشعور يخالطه الرضا: «لكنه يفرحني قبل كل شيء أن الإنجليز، الذين يستهينون بألمانيا فيمرون بها مرورا سريعا في طريقهم إلى إيطاليا وما شابهها، سيتذكرون أن الألمان أصابوهم هنا في أكثر نقاطهم حساسية، حين سيقرؤون كلمات إيران، العراق، أفغانستان المنقوشة في الصخر».

لفت غياب ممثلي النظام النازي الرسميين الأنظار، بينما أرسل مكتب الإعمار، ومكتب الإقليم مندوبين عنهما، وكذلك فعلت خطوط الرايش

الحديدية. عدا ذلك، كان هناك جمع متنوع ضم البهاء الأرستقراطي ممثلا بالأميرة هورشبرج من قصر فارنبول المجاور والأميرة فون فيدل، أرملة ملك ألبانيا السابق، التي كان القوم يلقبونها بصاحبة السمو الملكي أو بجلالتك، وامتدحت خطبة فريتز نيدرماير.

كان الاحتفال ذا توجه ماضوي اجتماعيا ومن حيث مضمونه. فقد جاء خصيصا إليه من برلين المستشار السري الأستاذ ساره، عالم الآثار ومضيف أنور باشا، الذي حمّل فريتز تحياته القلبية إلى شقيقه أوسكار. ولم يتردد الرائد السويدي ماريه من تحمل عناء القدوم من بلده، وكان قد وضع مطلع عام 1915 خططا في اسطنبول بالاتفاق مع الألمان والأتراك حول قيام الدرك الفارسي، الذي يقوده السويديون، بالعمل ضد الروس والبريطانيين. وها هو يحتفل الآن مع إخوته الألمان في السلاح ويشرب نخب شاه فارس.

وجاء من طهران في رحلة استغرقت يومين عضوان سابقان في بعثة كلاين. في حين قدم من لندن الدكتور إدجار شتيرن ـ روبارت، الذي كان قد غادر الرايش الثالث المعادي لليهود، لكنه بقي مقيما على الولاء لوطنه. أما جوتفريد سوندرإيجر، المحارب السويسري المتطوع، فقد ألقى خطبة بالألمانية السويسرية أثارت حماسة الحشد. وفي المساء كتب فريتز نيدرماير بتأثر إلى زوجته: «لقد كان جوا يصعب وصفه، تخللته النكات».

لم يساند النظام النازي النصب الذي أقامته شركة رول أو الاحتفال بتدشينه. وتم تمويل كل شيء بصورة شخصية، فدفع فرتيز نيدرماير ثمن عشاء ونبيذ جارته على المائدة «صاحبة البهاء الأميرة هوخبرج». لا عجب أن النقود لم تكن كافية في النهاية، وأنه رجا شقيقه أوسكار إرسال مائة رايش مارك لتغطية التكاليف. إلى هذا، كان على كل عضو بعثة دفع ثمن شجرة للحوض الذي سيقام وراء النصب، على أن تذكّر لوحة حجرية بأسماء المتبرعين.

اختفى نصب «البعثة الشرقية التابعة للأركان العامة الكبيرة»، الذي تم تحطيمه بعد الحرب العالمية الثانية، وضمت الأرض التي قام عليها إلى أرض شركة الأسرة التي أقامته. واختفت كذلك اللوحة الحجرية التي حملت أسماء القتلى. ليس معروفا لماذا لم يحضر أوسكار نيدرماير التدشين. لقد أخبر شقيقه أنه لا يستطيع الحضور لأسباب وظيفية، غير أنه كان بالتأكيد أمرا سهلا بالنسبة إلى مدرس في الجامعة ركوب القطار مساء الأحد من برلين إلى ميونيخ. فهل كانت لديه عام 1934 أسباب تدفعه إلى تحاشي الظهور وسط الرأي العام؟.

تحت أنظار الشرطة السرية

انتقل هتلر في 30 حزيران إلى هجوم لا يعرف الرحمة على أعدائه الحقيقيين والوهميين، فكان إرنست روم، مقدم الحرب العالمية الأولى البافاري وقائد ميليشا الحزب النازي بين الضحايا، بينما قتل رميا بالرصاص كورت فون شلايشر، جنرال ومستشار الرايش السابق مع زوجته، وسقط عدد من معاوني فون بابن ضحايا كتائب الموت، وتمت تصفية جريجور شتراسر، منافس هتلر وممثل تيار الحزب اليساري، في مقر شرطة الدولة السرية الرئيس في شارع الأمير ألبرشت.

أدرك نيدرماير يوم 30 حزيران 1934 خطورة النظام الجديد. وعلم أن أنشطته في موسكو لم تكن فقط شوكة في أعين الديموقراطيين الاجتماعيين والليبراليين وحدهم، بل كذلك في أعين الدوائر العرقية والنواة المحيطة بهتلر. وعرف كذلك أن أرتور ماهرون، المعلم الأكبر لأخوية الألمان الفتيان توجه يوم 20 أيار عام 1930 بالشكوى إلى فون شلايشر بسبب تعاون جيش الرايش مع الجيش الأحمر، وشكا بصورة خاصة من أوسكار فون نيدرماير، «الذي كان قريبا في الماضي من الجنرال فون سيكت»[28].

28. تركة شلايشر في الأرشيف الاتحادي، رقم 42/ 35. صفحة 96.

أما تهمة القرب من البلاشفة فهي إن لم تكن خطيرة على الحياة، فهي خطيرة بالتأكيد على المسار الأكاديمي، وقد سبق أن تعرض لهذه التجربة عالم مشهور ومحترم عرف صلات جيش الرايش السرية مع موسكو ودعمها، هو أوتو هوتسش، مؤرخ أوروبا الشرقية الرئيس وسند نيدرماير الأكاديمي في برلين، الذي كان كعالم وكنائب سابق في برلمان الرايش نقطة ارتكاز جمعية برلين للسياسة الخارجية، ولفت في 30 كانون الثاني عام 1933 نظر الأمير جودنهوفه ـ كاليرجي إلى ميول الأجيال الشابة الاشتراكية، حين كان مسؤولا عن إلقاء دروس في التاريخ أمام الجيل التالي من الديبلوماسيين في وزارة الخارجية. كان هوتشس يعرف حق المعرفة ما يتحدث عنه، فقد نشأ هو نفسه ضمن وسط فقير في لايبزيج، وسافر مرات عديدة بين عامي و923 و1934 بصفته أستاذ كرسي في جامعة برلين إلى الاتحاد السوفييتي، وكان ناشر مجلة شرق أوروبا، التي أصدرها عام 1925 كرئيس يدير أعمال «الجمعية الألمانية لدراسة أوروبا الشرقية»، وعضوا في برلمان بروسيا من 1919 إلى 1930، ثم عضوا في برلمان الرايش، حيث كان أول الأمر نائبا عن حزب الشعب القومي الألماني، قبل أن يتخلى عام 1929 عن عضويته في هذا الحزب اليميني المتطرف، ويفقد منذ عام 1930 توكيله السياسي.

دعم هوتشس أطروحة الأستاذية التي أعدها نيدرماير وأيد دعوته إلى العمل كأستاذ كرسي في جامعة برلين، وهو الذي كان يعرف نشاطه السابق في موسكو، بحكم اطلاعه كعضو في لجنة العلاقات الخارجية على التعاون مع الجيش الأحمر، واقتناعه بضرورته السياسية. فقد الأستاذ إيمانه بالشراكة مع البريطانيين والأميركيين ورأى فيهم عدو ألمانيا الرئيس، بعد تجارب خاصة عاشها في الولايات المتحدة الأميركية ـ نتيجة إقامته فيها كأستاذ ضيف في ماساشوستس وتعرفه على نيوإنجلند وتقليد النخب الأنجلوساكسوني ـ . عندئذ، دعا إلى إقامة توازن مع روسيا، وأدان بشدة سياسة الديموقراطيين الاجتماعيين والليبراليين والنازيين المعادية لروسيا والبلاشفة. لم يؤمن

الأستاذ ببولونيا المستقلة، واعتقد أن ضم بولونيا إلى اتحاد مع روسيا يصحبه تصحيح في الحدود لصالح شرق ألمانيا هو أفضل حل يلبي المصالح الألمانية.

وقع أوتو هوتشس والمساعدون العلميون المقربون منه تحت أنظار شرطة الدولة السرية. ثمة حدث موثق في وزارة الخارجية يبين كم كان وضع نيدرماير خطيرا بين القوميين المؤيدين لروسيا والأيديولوجيين العرقيين. ومع أن وثائق هذا الحدث تحمل آثار حريق الحرب، فإنه يمكن فهم مضمونها دون عناء، لكونها تعيد القارئ إلى برلين عام 1935، وإلى وزارة الخارجية القديمة في شارع فيلهلم، وإلى الجامعة ومكاتب هاينريخ هملر في شارع الأمير ألبرشت رقم 8[29].

بدأ الأمر بيروقراطيا صرفا، فقد تلقت وزارة الخارجية إعلانا أرسله «مجلس جامعة برلين الاستشاري للدراسات الخارجية»، يعلمها بسلسلة محاضرات عن «الاتحاد السوفييتي». كان المحاضرون خبراء معروفين. أما المحاضر الأول فكان الأستاذ الدكتور تيودور أوبرلاندر من كونيجسبرج، الذي سيتحدث يوم 22 كانون الثاني عام 1935 عن مسألة القوميات، على أن يليه بعد أسبوع الأستاذ بيركوبف من جامعة مونستر بمحاضرة حول سياسة التصنيع السوفييتية، ويعالج الدكتور شيلر من جامعة هايدلبرج، وهو أحد أفضل من يعرفون في العالم سياسات السوفييت الزراعية، وضع الزراعة السوفييتية، ويتحدث مستشار الدولة الأستاذ الدكتور فون فرايتاج ـ لورينجهوفن من جامعة بريسلاو عن سياسة موسكو الخارجية، وتختتم سلسلة المحاضرات وتبلغ ذروتها بمحاضرة عن سياسة السوفييت العسكرية يلقيها الدكتور أوسكار نيدرماير المدرس في جامعة برلين.

29. انظر: الأرشيف البروسي، وزارة الخارجية ر 31683، ص 47.

لم ترسل الدعوة إلى وزارة الخارجية فقط، بل وصلت أيضا إلى مستشارية ووزارة حرب الرايش ووزاراته الأخرى جميعها، كما تلقت مراكز الحزب النازي المهمة بطاقات دعوة، كان بينها ديوان نائب الفوهرر (القائد) رودولف هيس، ومكتب السياسة العسكرية في الحزب، وقيادة شبيبة الرايش . . . الخ. ووصلت دعوات إلى صحف برلين وجامعاتها وجمعية سياسة وعلوم الدفاع، ومحاكمها وإداراتها المالية، ومصارفها الكبرى، وغرف تجارتها ومتاحفها، وذهبت دعوة إلى مكتب شرطة الدولة السرية.

تذكر الوزير الاتحادي المتقاعد الأستاذ الدكتور أوبرلاندر، الحي الأخير من المحاضرين، يوم 10 كانون الثاني عام 1998 سلسلة محاضرات برلين. صحيح أن الرجل أعمى، وأن الأحداث تقع على بعد ثلاثين عاما إلى الوراء، إلا أنه تذكر أحداثا تستحق أن نتوقف عندها. لقد كان آنذاك على خصومة وتنافس مع نيدرماير، الذي كانت شخصيته غامضة بالنسبة إليه، وبقيت «غامضة، غامضة كليا» طيلة حياته.

كان أوبرلاندر رجل النظام النازي بحق، فقد كان على علاقة وثيقة مع قائد المحافظة كوخ، الذي أيد، بعكس هتلر، التعاون مع الاتحاد السوفييتي، واعتبر البولونيين لا البلاشفة أعداء ألمانيا الألداء. ألم يستطع أوبرلاندر، خبير روسيا والشرق، الذي يحظى بتقدير السوفييت، معرفة الأرضية التي يقف عليها؟. خلال زيارة قام بها إلى روسيا عام 1934، دعا راديك الأستاذ الألماني إلى غداء شارك فيه أيضا نيقولاي بوخارين. يتذكر أوبرلاندر أن الرجلين سألا عن إمكانية قيام تعاون بين ألمانيا النازية والاتحاد السوفييتي، وعن حجم هذا التعاون، وأن ممثلا للسفارة الألمانية كان حاضرا خلال الغداء قال إنه يريد إبلاغ برلين بما حدث. ومع أنه لم يتم العثور على تقرير هذا الموظف في أرشيف وزارة الخارجية، فقد كتب ديبلوماسي ألماني سابق هو جوستاف شتروم في تشرين الثاني عام 1948 في جريدة «شتوتجارتر روندشاو» عن أستاذ من جامعة كونيجسبرج سعى إلى عقد صلات مع راديك

بتكليف من المحافظ كوخ[30]. بعد أعوام قليلة، كان هذا الأستاذ وزيرا اتحاديا لشؤون المطرودين في حكومة أديناور.

حاول أوبرلاند في الثلاثينات الحصول على كرسي أستاذ في برلين، الأمر الذي وضعه في حالة تنافس مع نيدرماير، زاد اضطراما أنه كان يتحرك مثله في المجال الفاصل بين العلم والتنوير، مع أنه لم يكن واضحا ما إذا كان قد اشتغل عام 1935 في الجاسوسية المضادة بقيادة كاناريس. ألقى الرجل المحاضرة الأولى في سلسلة محاضرات جامعة برلين، وجعله رد فعل الجمهور يلاحظ بعد بداية المحاضرة بقليل أن موضوعها «سياسة القوميات السوفييتية» لا يريح الحاضرين من ممثلي الحزب. وقد تذكر عام 1998 التوتر الذي استعرت نيرانه بين النازيين المعادين للسوفييت وأعدائهم، الذين لم يكونوا من معسكر اليسار وحده.

أحسن نيدرماير صنعا بدوره، عندما لامس برفق حديد «سياسة السوفييت العسكرية» الحامي في محاضرته الختامية. إنه لم يقف أمام جمهوره قبل الحصول على تطمينات وضمانات، نالها بعد أن أعلم صيف عام 1934، بعد وقت قصير من قتل شلايشر، مكتب السياسة العسكرية في الحزب ومكتب رودلف هيس بسلسلة المحاضرات، دون أن يتلقى اعتراضا من أية جهة منهما. كما أرسل نسخة من محاضرته، التي كتبها في خريف عام 1934، إلى وزارة حرب الرايش، وأرسل نسخة أخرى إلى وزارة الخارجية في كانون الثاني عام 1935 من أجل تدقيقها والتصديق عليها. وقد قدمت الدائرتان اقتراحات بتغييرات طفيفة، أدخلها نيدرماير على النص. وعلى سبيل المثال، اقترحت وزارة الخارجية ذكر النص الحرفي ليمين القسم في الجيش الأحمر، كما طلب إليه أن لا يفسر سياسة السوفييت الغربية بشك

30. جوستاف شتروم: أربعة عشر عاما من التحالف العسكري الألماني / السوفييتي. شتوتجارتر روندشاو، 26 تشين الثاني 1948، ص 6.

موسكو في سياسة ألمانيا النازية، بل بطموحها إلى تغطية جناح الاتحاد السوفييتي الغربي عند نشوب نزاع في الشرق.

عندما بلغ نيدرماير المنصة يوم 15 شباط 1935، كان يضع شعار الحزب النازي على بذلته وحيا الحاضرين الكثيرين برفع يده على الطريقة الهتلرية. ذلك كان في نظر موظفي شرطة الدولة السرية في القاعة من مستلزمات التظاهر بالولاء للنظام، التي أريد بها ستر حقيقة أن سلسلة المحاضرات بدت لهم في مجملها «موالية لروسيا بل وللبلشفية»، وخاصة محاضرة نيدرماير، التي كانت حسب محضر أعدته الشرطة السرية: «ذروة ما يمكن إنشاده من أغاني مديح للاتحاد السوفييتي». يسجل المحضر بغضب شديد التقويم الإيجابي الذي قدمه المحاضر حول الجمعية الزراعية الإجبارية، ويقول إنه تجاوز كل حد حين قال: «إن السياسة الغذائية للتجميع عرفت ـ هذا ما يجب الاعتراف به ـ كيف تزيد إنجازات الزراعة بالنسبة إلى الدولة»، دون أن يذكر بكلمة واحدة «أن عشرة ملايين فلاح هلكوا جوعا بسببها».

ثم أفلت الزمام في القاعة. يقول تقرير الشرطة السرية: «وجدت شروح الدكتور نيدرماير صدى حماسيا لدى المستمعين ذوي الميول المؤيدة للبلشفية». وقال ممثل وكالة تاس للأنباء إلى نائب الملحق العسكري الروسي: «هذه المحاضرة هي خير دعاية كنا نتمناها». بينما صرح روسي آخر أمام مسؤول القضايا الروسية في مكتب السياسة الخارجية الحزبي، الدكتور جورج لايبرانت، أن أي مبعوث ترسله موسكو ما كان ليتحدث أفضل من المحاضر.

وذكر تقرير الشرطة السرية إن قادة الطلبة الشيوعيين المعتقلين أبدوا دهشتهم من وجود آراء في الرايش الثالث على هذا القدر من الإيجابية تجاه الاتحاد السوفييتي. وأضاف إن نيدرماير أثار مظاهر من التأييد والاستهجان

عندما شرح السياسة الخارجية السوفييتية: «تتسم السياسة الخارجية بقدر هائل من المرونة، وقد عرفت إلى الآن كيف تتفادى احتمالات نزاع حربي، حتى عندما كان ذلك يتطلب منها تضحيات مادية ومعنوية». وأشار إلى أحلاف عدم الاعتداء، ومعاهدات الصداقة والحياد التي عقدتها موسكو مع جميع جيرانها في الجنوب والغرب، وذكر علاقات الصداقة بينها وبين تركيا وصلاتها الطيبة مع إيطاليا الفاشية، بينما فقدت معاهدة رابالو، التي كانت ذات يوم عظيمة الأهمية بالنسبة إلى ألمانيا وروسيا، أية قوة فعلية».

عند هذه النقطة، أجبرت ردود فعل الجمهور المحاضر على الخروج عن نصه المتفق عليه، وجعلته يطلق تصريحا عفويا اضطر فيما بعد إلى تبريره في مذكرة إلى وزارة الرايش للإرشاد والدعاية: «تعني هذه الملاحظة أنني أحافظ على رأي السابق حول أهمية معاهدة رابالو، خاصة من منظور سياسي دفاعي (زيادة قدرة ألمانيا على عقد تحالفات، التأثير على إنجلترا)، الأمر الذي تؤكده الكتابات الإنجليزية المختلفة مثل كتاب (وجه ألمانيا الروسي، ألمانيا في أوروبا)».

أرسلت شرطة الدولة السرية تقريرها بالبريد السريع في 11 نيسان 1935 إلى وزير العلوم والتربية والتثقيف الشعبي في الرايش وبروسيا، راجية «المسارعة» إلى اتخاذ موقف. لا تثير عجبنا الطريقة التي قومت الشرطة بها محاضرة نيدرماير، الذي: «تنتمي شروحه كلها إلى سياسة الأستاذ هوتشس الخارجية الموجهة نحو الشرق، وتدشن رؤية تتبنى خط رابالو، رغم أنها تنكر ذلك نحو الخارج». ووصف المسؤول عن مكتب السياسة الخارجية في الحزب، ليبرانت، في مقابلة مع شرطة الدولة السرية اتجاه المحاضرة بأنه «مبدئي وخطير»، ولاحظ «أنه يحيد كثيرا عن خط الحزب وإرادة القائد الخارجية». وإنما يثير العجب قلة ما كانت تعرفه شرطة الدولة السرية عن تعاون نيدرماير السري مع البلاشفة. ومع أن بروكدورف ـ رانتساو أعتقد في حينه أن تعاون نيدرماير مع راديك والجيش الأحمر ذهب بعيدا جدا، فإن

شرطة الدولة السرية اعتبرته الآن «ممثلا لسياسة بروكدورف الودية تجاه روسيا». لذلك كان وضعه بعد محاضرة 15 شباط صعبا على الصعيدين الشخصي والوظيفي، وهو الذي كان ينتظر بعد أطروحة الاستاذية كرسي تدريس، مع أفضلية أن يكون في جامعة برلين، علما بأن مساره الوظيفي كان الآن مهددا جديا من خلال تحقيقات الشرطة السرية.

كان نيدرماير مجهدا وفي حال صحي سيء، عندما بدأ النظام النازي يضايقه هو وبعض المقربين منه. وعلى سبيل المثال، هنأ نيدرماير أستاذه دريجالسكي يوم 9 شباط عام 1935 ببلوغه سن السبعين، وتلقى ردا محبطا فهم منه أن زوجته اليهودية تتعرض لتهجم النازيين، فكتب يوم 23 شباط، بعد أسبوع من محاضراته الإشكالية، رسالة إلى هاوسهوفر قال فيها: «أحزنني كثيرا رد دريجالسكي على تهنئتي. إن مأساة مخيفة تصيب أسرته. ومع أنني أريد عمل كل ما بوسعي عمله، فإنني، لأسفي الشديد، لا أستطيع التوجه مباشرة اليوم إلى أي نافذين، لأن هؤلاء بمنأى عن الناس العاديين أكثر بكثير مما كان المسؤولون السابقون. وأنت وحدك لديك مدخل مباشر، وهيس هو في نهاية الأمر أحد الرجال النافذين، الذين لا يجرؤ أحد هنا كما لا تجرؤ أية دائرة رسمية على القيام بأي شيء دون موافقته. هل أستطيع أنا المساعدة في أي أمر؟. إن الموضوع يتعلق بأستاذنا القديم المحترم، فكيف ترى أنت هذا الأمر، الذي يعني الكثير بالنسبة إلي». لم يكتب نيدرماير شيئا عن محاضرته، لكنه ختم رسالته بالاعتراف: «أن قواي في نهايتها بسبب الإجهاد والمرض».

فكر نيدرماير وتصرف بعد أسابيع قليلة مرة أخرى بهدوء وحسم، وأعلن في لقاء مع موظف في وزارة الخارجية أنه «يريد القتال حتى النهاية في سبيل الأمر»، ثم بدأ يشد الخيوط جميعها، فحصل على موقف إيجابي من وزارة الخارجية، ووزارة حرب الرايش ووزارة ثقافة الرايش وبروسيا، وأرسل المحاضرة مشفوعة بالموافقات والمواقف التي وصلته إلى قائد الرايش

لشؤون ال س س هاينريخ هملر، بينما دافع هاوسهوفر شخصيا عنه لدى رودولف هيس[31].

استقبل الجنرال فالتر فون رايشناو نيدرماير في وزارة حرب الرايش، لكن قضيته كانت تعالج في شعبة مكافحة التجسس بقيادة كاناريس، التي أكد لها كتابيا بتاريخ 16 نيسان 1935 أنه فعل كل ما يلزم من أجل أخذ موافقة الجهات المختصة على محاضرته. يقول الوزير الاتحادي أوبرلاندر، منافس نيدرماير أن علاقة المكافحة بالأخير كانت «متوترة قليلا»، لأن كاناريس، ممثل بحرية الرايش، كان معاديا بقوة للبلشفية، بتأثير انطباعاته عن انتفاضة البحارة الألمان في تشرين الثاني من عام 1918. ومع أنه عمل هو نفسه من أجل تسليح البحرية السري، وكان ناشطا في إسبانيا قبل كل شيء، فقد نظر دوما بعين الريبة إلى علاقات جيش الرايش مع الجيش الأحمر. أبلغ نيدرماير الشعبة أنه تقيد بمخطوطته، وإن كان الجمهور قد دفعه، حين وصل إلى المقطع الخاص بمعاهدة رابالو، «إلى إدخال بعض الملاحظات التكميلية والتوضيحية». ثم رفض بحزم الاتهامات الموجهة إليه وقال: «أرفض باستنكار التهمة التي تزعم أن محاضرتي تتضمن ميلا وديا نحو البلاشفة، وأن لدي قضية مشتركة مع الدوائر الشيوعية والبلشفية».

بعد يومين من رسالة نيدرماير إلى شعبة المكافحة، كتب وزير جيش الرايش فيرنر فون بلومبرج رسالة إلى زميله وزير العلم والتربية والتثقيف الشعبي في الرايش وبروسيا، وصلت نسخة منها إلى قائد إس إس الرايش هيملر. ترى، ما الذي اعتمل في نفس وزير حرب الرايش، حين عالج هذه القضية؟. كان بلومبرج قد دعم بقوة التعاون مع الجيش الأحمر حين كان رئيس مكتب الوحدات، ومثل في المناقشات المتخصصة مع وزارة الخارجية موقف وزارة جيش الرايش بصلابة وحنكة ونجاح. ومع أن سياسته الرخوة

31. تركة هاوسهوفر: الأرشيف البافاري، 122/ 23.

تجاه النظام النازي عادت عليه فيما بعد بلقب «الأسد المطاطي»، فإن من يقرأ وثائق وزارة الخارجية في العشرينات يحصل على صورة مختلفة عنه، ويتأكد من أنه كان يعرف آنذاك ما كان يريد.

لم يصبح بلومبرج دون سبب رئيس مكتب الوحدات في جيش العشرينات النخبوي، كما لم يصبح عبثا منذ خريف عام 1928 مفتشا للمحطات السوفييتية ولمركز موسكو. وقد وصف يوم 17 تشرين الثاني من ذلك العام بدقة مهام مرؤوسه المباشر نيدرماير في تقرير كتبه عن رحلته: «يتبع قائد مركز موسكو، الرائد المتقاعد الدكتور نيدرماير إلى مكتب الوحدات ويتلقى تعليماته منه. وتتبع له المشاريع الألمانية في روسيا، وعليه تمثيل سائر القضايا المتعلقة بها لدى السلطات الروسية، وخاصة منها مفوضية الحرب، التي هو على تماس دائم معها، وهو يتمتع بسمعة حسنة لدى مفوض الحرب المارشال فوروشيلوف».

دافع بلومبرج في نيسان عام 1935 عن نفسه، بدفاعه عن مرؤوسه السابق. وقد رفض أول الأمر عرض الوقائع الذي قدمته الشرطة السرية، وقال إن المسؤول عن سلسلة محاضرات جامعة برلين لم يكن الأستاذ هوتشس بل الأستاذ فوجل من حلقة بحث علم الدول والجغرافيا التاريخية. كما أن المحاضرات لا يجوز أن تثير القلق، لأن القسم الأكبر من المحاضرين أعضاء في الحزب. وأشار أخيرا إلى الموافقة المسبقة على المحاضرة، التي أعطتها جهات حكومية وحزبية. ووصف في النهاية ملاحظة نيدرماير على معاهدة رابالو بالعفوية.

ثم عرج بلومبرج على المشكلة الرئيسة وعلى شخصية نيدرماير، وأوضح أنه يحكم على التعاون العسكري مع الاتحاد السوفييتي بتحفظ، حين يلقي اليوم نظرة راجعة عليه، رغم أنه عاد من رحلته عبر الاتحاد السوفييتي خلال خريف عام 1928 بتعاطف شديد مع اشتراكية الدولة السائدة هناك.

وسلم أخيرا: «أنه يجب من وجهة نظري اعتبار محاضرة نيدرماير عن السياسة العسكرية للاتحاد السوفييتي غير مناسبة إطلاقا في اللحظة الراهنة».

الحقيقة أن توقيت محاضرة نيدرماير كان «غير مناسب على الإطلاق»، بغض النظر عن أية اعتبارات أيديولوجية، ذلك أنه بعد شهر من إلقائها، كان عمل سيكت التمهيدي يبلغ ذروته في إعلان التجنيد الإجباري العام يوم 16 آذار 1935، الذي جعل ممكنا تشكيل قوات مسلحة جديدة بقوة 36 فرقة وسلاح جو فاعل وحديث، قامت حول نواة جيش الرايش الصلبة، المكونة من ضباط وصف ضباط على مستوى رفيع من التدريب، فتم بذلك تعطيل معاهدة فرساي بصورة نهائية. في مثل هذه اللحظة، التي كانت تجري فيها الاستعدادات السرية لإعلان التجنيد العام الإجباري، لم يكن مناسبا بالنسبة إلى قيادة جيش الرايش أو حكومته دفع القوى الغربية إلى ما هو أكثر من احتجاجات شكلية، وكانت ذكريات رابالو غير مناسبة بفعل حسابات سياسية داخلية وخارجية.

مهما يكن من أمر، لقد تصرف نيدرماير بطريقة دقيقة من الناحية الشكلية، وحصل على براءته السياسية بموافقة الجهات الرسمية المسؤولة، فما كان من بلومبرج إلا أن استخلص النتيجة التالية: «انطلاقا من التحفظات التي أوردتها، أرى أن نيدرماير فعل كل ما هو مطلوب للتأكد من موافقة الجهات صاحبة القرار في مسائل السياسة الخارجية. وحسب المعلومات التي عرفتها، ومعرفتي بشخص نيدرماير، فإنه لا صحة للحديث عن مديحه للاتحاد السوفييتي». ثم ختم بتأكيد قاطع هو أن نيدرماير، الذي خدم الجيش بنجاح في روسيا، يمتلك ثقته «كجندي وكإنسان»، وأضاف: «لست في وضع يسمح لي بتغيير رأيي في هذا الرجل الذي خدم وطنه، بسبب الاتهامات الموجهة إليه».

أرسل نيدرماير يوم 25 أيار 1935 المستندات التي تبرئ ساحته إلى قائد

ال إس إس في الرايش. وبعد شهر من ذلك، في 25 حزيران عام 1935 وصله رد جوابي من هاينريش هيملر. كان السيد المخيف في شارع الأمير ألبريشت رقم 8 يعرف تمام المعرفة من هو نيدرماير، فقد جاء هو نفسه من الوسط الاجتماعي والإقليمي الذي تحدر منه ابن بلده الرفيع الأوسمة والقائد العسكري لبعثة ألمانيا إلى أفغانستان. كان هيملر مثل نيدرماير ابن مستشار سري صارم من بافاريا الدنيا، مر والده بالمسار الذي عاشه والد نيدرماير، وربما كان الأبوان قد التقيا في حلقات أعيان لاندسهوت، عندما عملا كلاهما قبل الحرب العالمية الأولى معلمين في مدارس المدينة البافارية الثانوية وموظفين في مصلحة المباني التابعة لها، وانتظرا في العاصمة الخطوة التالية في مسارهما الوظيفي.

إلا أنه كان هناك فروق كبيرة بين هيملر ونيدماير، الذي كان أكبر بخمسة عشر عاما من القائد الشاب لوحدات إس إس الرايش، وتلقى بخلاف هيملر دراسته الثانوية وتدريبه العسكري كضابط في سنوات السلام السابقة للحرب العالمية الأولى. ومع أنه لم يكن ملكيا، فإنه انطبع بطابع التصورات السياسية والثقافية لعصر ولي العهد. بالمقابل، عاش هيملر سنوات شبابه خلال الحرب العالمية والفترة التالية لها مباشرة بعنفها وجوها المشحون بالدعاية القومية. وبخلاف نيدرماير لم يشارك هيملر في الحرب، ولم تكن لديه تجارب في البلدان الأجنبية، بل انه لم يغادر إطلاقا ميونيخ، التي كانت قد تحولت إلى مدينة إقليمية على الصعيد الفكري، بسبب التحريض النازي الذي أعقب سقوط جمهورية اللجان.

قبل نيدرماير أن يعطي هذا الشاب الغر في السياسة الخارجية نفسه حق تقويم سلوكه وأفكاره السياسية، فقد كان، على كل حال، مهذبا ويعرف كم يدين شخصيا إلى أحد فرسان أخوية ماكس جوزيف العسكرية البافارية: «لقد قرأت محاضرتكم حسب المستندات المقدمة إلي من قبلكم وحسب التقارير، وأنا على ثقة من أنكم تصرفتم بطريقة سليمة أولا، وأنه لا أساس على

الإطلاق لأي شك في معتقداتكم وأفكاركم ثانيا». ثم ترد فقرة تؤكد مخاوف نيدرماير من السياسة النازية، أدان هيملر فيها بلغة وعظية سعي نيدرماير إلى الموضوعية العلمية، وتذكر لأول مرة وصفا سيظهر من الآن فصاعدا في جميع الوثائق المتعلقة بحياة نيدرماير هو «الإنسان الأدنى». قال هيملر: «أعتقد على كل حال أن الطريقة التي أردتموها قدمت دون شك فرصة لظهور سوء الفهم هذا، الذي ما كان سينشأ قطعا لو أكملتم محاضرتكم بالتأكيد على البؤس الذي يمكن من خلاله اليوم مراقبة وإبراز قوة روسيا السوفييتية كدولة للإنسان الأدنى». بعد ذلك، يسدد هيملر ضربة جانبية إلى جيش الرايش ووزارة الخارجية: «لكن هذه ليس غلطة تتحملون الذنب عن وقوعها، بل هي دون شك غلطة الجهات التي كانت لكم صلة شخصية معها قبل محاضرتكم». إنه تصريح مذهل يكتم الأنفاس: فهاينريش هيملر، ابن الخامسة والثلاثين الذي يفتقر إلى أية خبرة في السياسة الخارجية يعطي نفسه الحق في إصدار شهادة تتهم دوائر الرايش العليا المختصة بارتكاب خطأ سياسي في تقويم الاتحاد السوفييتي.

عرف نيدرماير الآن من أين تهب الريح، وفهم أن إس إس هيملر والشرطة السرية هما مركز السلطة الحقيقية في النظام النازي. وضعت رسالة هيملر حدا للمشكلة التي نشأت يوم 15 شباط 1935، وبعد ذلك بقليل، تبعه مكتب السياسة الخارجية في الحزب النازي بقيادة ألفريد روزنبرج، وأقلع القوم عن توجيه التهم إليه رغم إصرار مكتب روزنبرج على نقد المحاضرة، التي تبنى ثرثرة ممثلي السفارة السوفييتية عنها.

صيف 1935

كانت رسالة هيملر صافرة أمان جزئية بالنسبة إلى نيدرماير، الذي كان يمكن أن يسقط دوما في تهمة الانحراف السياسي والأيديولوجي. قبل عشرة أيام من إرسال المواد التي تبرئ ساحته إلى هيملر، أعفي الأستاذ أوتو

هيتشس، المؤيد المناضل للتعاون الألماني / الروسي، من منصبه في الهيئة التدريسية بجامعة برلين بدءا من 1 أيلول عام 1935، بتهمة تأييد البلاشفة. ذلك أقنع نيدرماير بحاجته إلى مزيد من العمل لحماية نفسه.

أرسل كارل هاوسهوفر يوم 29 تموز 1935 إلى رودولف هيس «صورة عن حياة» نيدرماير تقع في ست صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة[32]، زودها صاحبها بملاحظة كتبها بخط يده تقول «بصفة شخصية». في الرسالة المرفقة، رجا هاوسهوفر صديقه اعتبار السيرة نصا سياسيا آمنا، وطلب إليه قراءته وهو جالس على شرفة المنزل في الصيف، وأضاف: لقد فحص هيملر المؤلف، وكتب له رسالة شخصية وسمح له باستخدام التبرئة التي وردت فيها».

أخبر هاوسهوفر هيس أن نيدرماير تعرض لهجمات سياسية من الدوائر الحزبية، رغم رسالة هيملر: «رغم ذلك، يرميه بعض الصغار (أعتقد أنهم يسمون أنفسهم أعداء الكومنترن) بتهم شتى مع أنه يخدم الحزب في جامعة برلين بحيوية خارقة، ويرون فيه بلشفيا، لمجرد أنه القى محاضرة جيدة عن القضايا العسكرية السوفييتية، رآها قبل ذلك بلومبرج وأقرتها وزارة الخارجية، وكتب أفضل وأكثر الكتب فائدة عن الأحلاف السوفييتية، وضعت أنا نفسي مقدمة متحمسة له، لأنه أفضل كتاب جيوسياسي عن روسيا».

لم يتوقف الأمر عند دفاع هاوسهوفر عن نيدرماير، بل دافع عن نفسه أيضا، وقال إن أية تهمة قد توجه إليه بزعم أنه كان يتفهم أوضاع البلاشفة أو يعمل لهم، يجب أن توضع تحت أعين صديقه الغالي هيس بوصفها أكذوبة مضحكة: «هل تعتقد أنني سأصير حقا بلشفيا في أيامي الأخيرة، فأفقد بذلك صلابتي وخيرة أصدقائي، مع أن الروس واليانكي هم الصنف البشري الذي أكرهه أكثر من أي شيء آخر؟. إذا كنت لا تصدق هذا، ضع حدا للنباح

32. انظر الوثائق المختارة، الوثيقة الخامسة، المنشورة في نهاية هذا الكتاب.

الذي أظن أن سببه شخص ما من صغار جماعة مكافحة التجسس أو الاستطلاع، وليس أي موظف كبير»!. كان غضب هاوسهوفر مفتعلا: ألم يكتب عام 1922 تقويمات علمية لراديك وقيادة الكرملين بتكليف من نيدرماير، ويتلقى أجرا عليها؟.

كان «النص المرفق»، الذي أرسله هاوسهوفر كي يلقي هيس عليه نظرة فاصحة حقيقية، عرضا ذاتيا بارعا هو مزيج من الحقيقة والتبرير والنقد الذاتي المنافق، المكرس للتأثير في هيس، قصده وضع «صورة حياة» نيدرماير تحت أضواء ملائمة، تشد انتباه قائد نازي كبير إلى شخصه، وتراعي ميوله الإنجليزية وتوجهه الإيديولوجي ببواعثه البريطانية. ترعرع هيس، إبن أحد التجار الألمان، في الإسكندرية، فكان خاليا من أي شعور بالتعاطف مع طموحات الاستقلال المعادية للبريطانيين في العالم الإسلامي، لأنه كان يستطيع أن يقارن انطلاقا من خبرته المباشرة الازدهار الاقتصادي في محمية مصر البريطانية مع ضعف الامبراطورية العثمانية الاقتصادي. كان هيس المعجب بالسيطرة الكولونيالية البريطانية وبطريقة الحياة الكولونيالية التي يعيشها عرق الأسياد البريطانيين، يشارك هتلر نظرته إلى الامبراطورية البريطانية العالمية كشريك سياسي مرغوب.

عندما رسم نيدرماير «صورة حياته» وأرسلها في تموز من عام 1935 إلى هيس، بدا التحالف بين ألمانيا النازية والامبرياليين البريطانيين قريبا وفي متناول اليد، فقد تم توقيع اتفاقية الأساطيل الألمانية / البريطانية في لندن يوم 18 حزيران 1935، بمناسبة الذكرى المائة وعشرين لمعركة واترلو، وكانت لندن مستعدة للتساهل مع الرايش الثالث المعادي للبلشفية، لو اتفقت تصورات برلين الجيوسياسية ضد الاتحاد السوفييتي بدقة مع مصالح لندن. وخففت التهديدات السياسية والعسكرية، التي أطلقها الرايش الثالث ضد الاتحاد السوفييتي، الضغط عن البريطانيين في آسيا وأعاقت تقارب برلين موسكو المثير للخوف.

إذا أراد نيدرماير في صيف 1935 إيجاد آذان صاغية والحصول على دعم هيس، فإن عليه توجيه حياته في اتجاه آخر، وهذا ما فعله حين أكد في «صورة حياته» تعاطفه مع البريطانيين، وتذكر كرم بيرسي سايكس في مشهد عام 1913، وحول قتاله ضدهم في الشرق وعملياته ضد لورانس العربي إلى منافسات شريفة بين أعداء أنداد، ومارس أخيرا «النقد الذاتي» على الطريقة الشائعة في الاتحاد السوفييتي، فاعترف باقتراف أخطاء وأعلن خضوعه للنظام: «لم أتمكن، بسبب بعدي عن الوطن، من القيام بنصيبي الحقيقي من العمل في سبيل التطور الاشتراكي القومي، ولم أعرف مكاني في دولة فايمار، مع أنني كنت بالمناسبة جنديا. بعودتي إلى ألمانيا، تعرفت أول الأمر على الوضع الجديد ومهمتي الجديدة، وأنا أعرف اليوم أن إرادتي الموجهة نحو إعادة بث القوة في ألمانيا قد سلكت طرقا خاطئة، وأن سياسة الفوهرر الخارجية وحدها تستطيع إرشادنا إلى الطريق الصحيح المؤدي إلى الهدف».

كان نقد نيدرماير الذاتي، وتأكيده «أن سياسة الفوهرر الخارجية وحدها» ترشدنا إلى الطريق الصحيح مظهرا خارجيا وتكيفا مخادعا، لأنه كان يعلم منذ فترة دراسته على يد جورج ياكوب في إرلنجن أن الجماعات الدينية السرية في الشرق تخفي قناعتها الأصلية في الوسط المعادي لها، وأنها لا تعتبر سلوكها هذا مسوغا دينيا وأخلاقيا وحسب، بل وتعتقد أنه صائب ومفيد. هكذا مارس نيدرماير سلوكا عرف منذ أيام فارس باسم «التقية»، بينما كان يسخر من هتلر في أحاديثه مع غير النازيين.

أدلى نيدرماير عام 1935 بأقوال مذهلة خلال حديث مع كريستوفر سايكس، ابن السياسي البريطاني مارك سايكس، المسؤول عن اتفاقية سايكس / بيكو، التي عقدت عام 1916[33]. تذكّر سايكس عام 1974 أن

33. كريستوفر سايكس وروبن بيدويل، 23 نيسان 1974. مجموعة أوراق كريستوفر سايكس، صندوق 24، جامعة جورجتاون، واشنطن.

محدثه: «شعر بأعظم احتقار وكره تجاه هتلر، ولكن ليس للأسباب المألوفة، بل لأن إدراك هتلر لا يتجاوز إدراك صف ضابط. وسخر من خطبه الحربية، مع أنه لم يكن مستعدا للحرب. وقال: إن أي رجل دولة سيحاول إثارة الانطباع لدى الآخرين بأنه يمارس سياسة سلمية حصرا، ليتمكن من بدء الحرب بصورة مباغتة».

تذكر كريستوفر سايكس نيدرماير بمشاعر مختلطة، فقد بدا له أن حسه الأخلاقي ليس ناميا بدرجة كافية، رغم الاحتقار الذي يكنه تجاه هتلر. لكنه اعتبره عالما مهما وخاطبه بعد عودته بصفته القائد الحازم لبعثة أفغانستان الألمانية، وشخصية قوية وحيوية ذات نظرة مؤثرة وعينين بنيتين نفاذتين. وأنهى صورته الأولية عن نيدرماير بتحذير: «إنه ينتمي إلى الرجال الذين جعلوا الجيش الألماني غير قابل للهزيمة على وجه التقريب»[34].

لكن نيدرماير كان على وشك بلوغ نهايته عام 1935، فهو لا يقف على أرضية وظيفية واجتماعية راسخة رغم سنواته الخمسين، واستمراره في موقعه كمدرس خاص غير مقبول على الإطلاق علميا وماليا، بينما موقعه الاجتماعي كعقيد متقاعد وسطي بدوره، بينما لم تقدم صداقة كارل هاوسهوفر مع هيس له إلا القليل من الحماية ضد هجمات أعدائه السياسيين.

دعوة مهمة

لم تمض غير أشهر قليلة حتى تحسن وضع نيدرماير الشخصي تحسنا ملموسا. حدث هذا في نهاية عام 1935، عندما كرّس مساره العلمي الوظيفي ونجح في امتحانه الشخصي والوظيفي وصار أستاذ كرسي في الجامعة. ربما كان لا يزال مؤمنا يومذاك بتقاليد هومبولدت العظيم، التي أشار إليها أستاذه فون ديرجالسكي عام 1904 باعتزاز في كلمته التأبينية لفرديناند فون

34. كريستوفر سايكس: فاسموس: لورانس الألماني. لندن 1936، ص 44.

ريشتهوفن. لكن دعوته إلى الأستاذية كانت قد فقدت في حقيقة الأمر أية صلة مع تقليد الاستقلال الذاتي الأكاديمي، بعد أن تحولت كلية الفلسفة في الجامعة الألمانية القائدة إلى جهاز تنفيذي بيد بيروقراطيين يخضعون لتوجيه سياسي / حزبي وأيديولوجي[35].

بدأت «عملية الدعوة» بإعلام قصير، فقد كتب السياسي المسؤول عن العلم في الحزب النازي، فرانز باشير، أستاذ كرسي الكيمياء في جامعة برلين التقنية العليا، والقائد الفعلي لشعبة الدراسة العليا في وزارة الرايش للعلوم والتربية والتثقيف الشعبي، رسالة يوم 6 آذار عام 1935 إلى عميد جامعة برلين تخبره بلغة آمرة: «أنوي تحويل أستاذية اللغات الشرقية العادية إلى أستاذية عادية للجغرافيا والعلوم العسكرية، ودعوة المدرس الخاص الدكتور أوسكار ريتر فون نيدرماير إلى تولي كرسيها. أرجو أن تعلمني كلية الفلسفة بموقفها على الفور، وأن يصلني ردها حتى 23 آذار».

يشير محضر اجتماع مجلس الكلية يوم 19 آذار إلى أنه كان سلسلة اتصالات هاتفية مرتجلة تمت على عجل: «بما أن القضية عاجلة جدا (لأن السيد الوزير يطلب ردا فوريا)، من الضروري سؤال السادة المعنيين بالأمر هاتفيا عن مواقفهم، إذا أمكن الوصول إليهم». أيد هوتشس دعوة نيدرماير، ودعمه الأستاذ كارل ستيلين، زميله في حلقة بحث تاريخ وجغرافية أوروبا الشرقية. وأيد الأستاذ فوجل، رئيس حلقة بحث علم الدولة والجغرافيا التاريخية، ووافق كذلك المؤرخ إيلتسه. لكن عضوان في الكلية ترددا هما الجغرافي نوربرت كريبس والأخصائي في الشؤون الإيرانية شيدر. رأى كريبس، عضو الجمعية الجغرافية الروسية في لينينغراد منذ عام 1933، في نيدرماير منافسا علميا له، وأمل شيدر، الأستاذ غير العادي، أن يحتل هو نفسه كرسي الأستاذية العادية المخصص للغات الشرقية.

35. تم توثيق «دعوة» نيدرماير في مستندات كلية الفلسفة تحت رقم 1245.

غير أن العميد نقل موافقة الكلية بعد «مؤتمرها الهاتفي» على دعوة نيدرماير، وإن كان قد أوصى بإعطاء كرسي اللغات الشرقية إلى الأخصائي في الإيرانيات الأستاذ شيدر، على أن يسمى نيدرماير أستاذا شخصيا ويتولى التدريس كأستاذ غير عادي أول الأمر، ويصير أستاذاً عاديا في أول مناسبة. بهذا الاقتراح، أرادت الكلية إرضاء عضو فيها دون أن تلحق الضرر بنيدرماير. بغض النظر عن هذه الإجراءات الغريبة، بدا نيدرماير مناسبا كباحث ومعلم أكاديمي لتمثيل اختصاص الجغرافيا العسكرية الجديد علميا: «إن السيد الدكتور فون نيدرماير هو جغرافي مؤهل في اختصاصه، وقد اكتسب كضابط نظرة عسكرية / سياسية شاملة ذات أبعاد استثنائية، تجعل أسس التأهيل الجغرافي العسكري متوفرة لديه هو بالذات».

قوَّمت الكلية في موقفها تقويما صائبا مسار نيدرماير الأكاديمي، حين قالت: «انتقل تطوره العلمي من الجغرافيا إلى الجغرافيا العسكرية إلى السياسة العسكرية». أما بالنسبة إلى الأساتذة هتشس وفوجل وستيلين، الذين أيدوا مثل نيدرماير توجها معينا للسياسة الألمانية، فكان معروفا قرب عمله العلمي من السياسة، وكذلك مشكلته السياسية: «تتدخل أطروحته من أجل الأستاذية بقوة في السياسة، لذلك لم يمكن نشر إلا مقاطع منها». ثم تقول الكلية بتفهم: «إن ممثل الاختصاص العلمي الجديد نيدرماير لم يتمكن بعد من «إنجاز كتابات ذات امتلاء ووزن، يطلب ما يماثلها عادة من الأستاذ الذي يريد تولي كرسي أستاذية عادية في برلين». بكلمات واضحة: في الأحوال الطبيعية، تقود الطريق إلى الأستاذية في برلين عبر الإقاليم الأكاديمية في إرلنجن وكيل أو جرايسفالد. لذلك لم تعرف الجامعة من قبل أية دعوة أولى إلى الأستاذية: «لكن التقويم الملائم الذي حظيت به إنجازات السيد الدكتور نيدرماير في مجال العلم العسكري جعلت الكلية توافق على دعوته إلى الأستاذية، وترى أن ارتباطه الوثيق بالشباب يجعل منه معلما أكاديميا رفيع القيمة».

بفضل هذا الموقف الإيجابي الذي اتخذته الكلية، تم تجاوز العقبة الأولى في إجراءات دعوة نيدرماير الصعبة، وبدأ الآن الصراع داخل القيادة النازية. من الصعب إعادة تصوير معارك الخنادق التي شهدتها هذا الصراع، لكنه يبدو أن توقيع هتلر على وثيقة التعيين يوم 19 تشرين الثاني عام 1935 كان نصرا كبيرا أحرزته شعبة الجامعات لدى وزير الرايش وبروسيا للعلوم والتربية والتثقيف الشعبي ضمن لعبة الدسائس السياسية في برلين. تقول الذاكرة الحكائية للمعنيين أن وثيقة تعيين نيدرماير دست بين كومة من وثائق الحكم بالإعدام، التي كان هتلر يوقعها بصورة آلية[36].

لكن «الخطأ» ما لبث أن انكشف بعد قليل من وصول الوثيقة إلى الجامعة، فظهر فجأة مبعوث من المستشارية الرئاسية، التي أعدت وثيقة هتلر الرسمية بصفته رئيس الدولة، وطلب من مساعد العميد تسليمه وثيقة تعيين نيدرماير. أصيب المساعد، الذي كان قد أرسل الوثيقة إلى التنفيذ، الذعر عندما أبلغه المبعوث بمهمته: «إن وثيقة تعيين الأستاذ الدكتور فون نيدرماير، التي وقعها فوهرر ومستشار الرايش يوم 19 تشرين الثاني من هذا العام، يجب أن لا تسلم إليه، وفق توجيه شخصي من فوهرر ومستشار الرايش نفسه. لذلك أطلب تسليم الوثيقة إلى مبعوث مستشارية الرئاسة، حامل هذا الكتاب»[37]. بعد بحث عاجل، تم العثور على الوثيقة وتسليمها باليد إلى المبعوث.

لا نعرف الدوافع التي جعلت هتلر يأمر برد وثيقة تعيين نيدرماير، ثم يأمر بتسليمها إليه في نهاية الأمر. يقال إن ال إس إس أبدت مقاومة قوية ضد التعيين، وإن هيس ووزير جيش الرايش الجنرال الفيلد مارشال فون

36. هيلموت هايبر: فالتر فرانك ومعهد الرايش الذي أسسه حول التاريخ وألمانيا الجديدة. شتوتجارت 1966، ص 608.

37. وثائق نيدرماير الشخصية، الجزء الثاني، مع ختم مساعد العميد المذعور. الصفحة 15.

بلومبرج ساندا التعيين، كما يتبين من رسالة أرسلها نيدرماير إلى هاوسهوفر يوم 5 تشرين الأول عام 1935.

انصبت النقطة الجوهرية في خلاف الجهتين على تقويم نيدرماير الاستراتيجي للاتحاد السوفييتي، الذي واصل وزير جيش الرايش مشاركته إياه، حسب ما قيل إلى هاوسهوفر: «أما فيما يتعلق بكتابي الجيوسياسي عن الاتحاد السوفييتي، فقد تحادثت عنه لفترة طويلة مع بلومبرج، الذي يعرفه ويوافق عليه اليوم أيضا. كما سمعت رأيا مماثلا من رئيس شعبة روسيا في الأركان العامة». بدوره، أدلى هتلر أمام الملحق العسكري الجديد في موسكو، الجنرال كوستارينج، بتصريحات تشي بوقوع تبدل في رؤيته، قال فيها حرفيا: «إنني أعلق أهمية على إعادة ورعاية العلاقات الطيبة، التي علمت أنها كانت قائمة في الماضي بين الجيشين». في النهاية، يخبر نيدرماير هاوسهوفر بسرور: «وبالمناسبة، يسارع القوم في الآونة الأخيرة إلى تأكيد أنهم لا يرون فيّ بلشفيا».

جاء في رسالة تلقاها نيدرماير يوم 29 تشرين الأول عام 1935: «أن الفوهرر ومستشار الرايش عيّنكم أستاذ كرسي في كلية الفلسفة بجامعة برلين». بذلك تخطى الرجل صيف عام 1935 الحرج، وتلقى منصبا تدريسيا شخصيا أعطاه جميع الحقوق التي يتمتع بها أعضاء الهيئة الأكاديمية، وتمنح للأستاذ بكرسي، وإن كان لا يعطى جميع حقوق الأستاذ العادي تجاه الدولة، وخاصة منها الحق في راتبه. صحيح أن وزير العلوم والتربية والتثقيف الشعبي أبلغ نيدرماير يوم 29 تشرين الأول عام 1935 أنه سيتلقى مخصصات أستاذ رسمي ومقدارها 11600 مارك رايش في العام، إضافة إلى مكافآت المحاضرات، إلا أن الموافقة على المكافآت سحبت بعد أيام، في 2 تشرين الثاني، «لأن وزير حرب الرايش والقائد الأعلى للقوات المسلحة أوعز بعودتكم كضابط عامل إلى القوات المسلحة، لذا، يترتب على ذلك اعتباركم ضابطا تكميليا وحرمانكم كأستاذ كرسي من راتب الأستاذية. رجا

نيدرماير في 14 تشرين الثاني 1938 استبدال ضمانة مال الزمالة الرسمي بتكليف علمي مدفوع الأجر أو بأية إعانة ممكنة، لكن طلبه رفض قبل أسابيع قليلة من انفجار الحرب العالمية الثانية[38].

إلى الأمام فوق القبور

أبلغ نيدرماير يوم 5 تشرين الثاني عام 1935 معلمه العائد من الصين هانس فون سيكت[39] قائلا: «أستظل منذ الأول من تشرين الثاني بحماية القوات المسلحة بصفتي ضابطا عاملا فيها». في وقت لاحق، سيستند نيدرماير في مواجهة الجهات الحزبية إلى رتبته كعقيد، مع أنهم لم يخصوه كضابط تكميلي بموقع في مكتب شؤون القوات المسلحة العامة، الذي من مهامه إجراء الاتصالات السياسية الداخلية بين القوات المسلحة والجهات الحزبية والجامعات.

عاش سيكت عقب عودته من الصين بعيدا عن الناس في برلين، ليتابع السياسة الدولية من مسافة آمنة. وقد أخبر نيدرماير رئيسه السابق في رسالة بعثها إليه بتاريخ 5 تشرين الثاني 1935 عن صلاته مع جينو سكابرا، الموظف السامي في وزارة الخارجية الإيطالية، الذي كان عضوا في الجناح اليساري، النقابي، من الحزب الفاشي، وكتب بدراية وتعاطف عن الاقتصاد السوفييتي المخطط، واهتم، فضلا عن ذلك، بالسياسة البريطانية في الهند، «نصحت جهة لا غبار عليها» نيدرماير بالتعرف عليه، خاصة وأنه يريد لقاء سيكت. أخبر نيدرماير الإيطالي «دون أن أقول له شيئا عن علاقتنا»، أن رئيسه القديم انسحب إلى حد بعيد من الحياة الاجتماعية والسياسية. لكن وجهات نظر سكابرا حول الوضع الدولي ووضع إيطاليا كانا على قدر كبير من الأهمية، لذلك أعلن نيدرماير استعداده إبلاغ سيكت بها، إن كانت لديه رغبة في معرفتها.

38. وثائق الجامعة، رقم 59، الجزء الأول، ص 35.
39. تركة سيكت. الأرشيف البافاري، 247/ 191، ص 178.

حافظ نيدرماير على صلاته برئيسه القديم إلى أن وافاه الأجل. وقد دعي إلى العشاء عنده في 2 تشرين الثاني 1936 بصحبة رئيس الأركان العامة الجنرال لودفيج بيك والباحث السويدي في شؤون آسيا سفن هيدين، الذي واظب على إقامة علاقات وثيقة مع الدوائر العسكرية الألمانية ونقل إليها بعض المعلومات القيمة، وتذكر هذا العشاء بعد الحرب العالمية الثانية[40]: «ترف رفيع قديم الطراز وخالص، وثياب سهرة رسمية وربطات عنق بيضاء». كان سيكت يجسد في برلين آدولف هتلر نمط عالم حياتي مضى.

مرض سيكت بشدة بعد أسابيع قليلة، ثم فارق الحياة بعد عيد الميلاد بقليل. وفي 28 كانون الأول 1936 قام الملحق العسكري في السفارة السوفييتية بتقديم تعازيه الصادقة إلى زوجته، وأعلن باسم الحكومة السوفييتية «الاحترام الأصدق» لشخص وعمل الميت.

أقيمت جنازة دولة لسيكت في مقبرة مشوهي الحرب، فانتهي بموته الخط الذكوري من عائلته. عندما بدأ الواعظ الميداني كلمته، غادر هتلر المقبرة. أما شاهدة قبره، التي تذكر بآخر رئيس أركان للامبراطورية العثمانية وبمؤسس جيش الرايش ومهندس القوات المسلحة، فتظهر عناصر من عصر فيلهلم والعشرينات والرايش الثالث، وتشير بالنص المكتوب عليها إلى الكارثة: «إلى الأمام فوق القبور».

علم خاضع

لم يعرف الرأي العام إلا القليل عن مصاعب نيدرماير، الذي اعتبره ممثلا نمطيا للرايش الثالث: فهو بطل حرب من بافاريا، وضابط، وجيوسياسي، صار بفضل انتمائه إلى الحزب وصلاته أستاذا في جامعة الرايش الأولى. هذا الانطباع لم يكن خاطئا كله، كما أكدت مجريات مؤتمر

40. سفن هيدين: خمسون عاما ألمانيا، لايبزيج 1938، ص 202.

الجغرافيين الألمان السادس والعشرون في فيينا بين 9 و12 تشرين الأول عام 1936.

جرى عام 1934 خلال يوم الجغرافيين الخامس والعشرين في بلد نويهايم دمج لجنة اللقاء المركزية مع اتحاد أساتذة التعليم العالي، وتمت السيطرة عليهما تنظيميا، وسمي ابن كارل هاوسهوفر المتألق ألبرشت مدير أعمال يوم الجغرافيين الألمان، وبدت المنظمة نحو الخارج كاتحاد علماء موالين للنظام وملتزمين بخطه. افتتح الأستاذ لودفيج ميكينج من جامعة هامبورج يوم الجغرافيين في فيينا بخطبة بيزنطية حيا فيها «الفوهرر ومستشار الرايش آدولف هتلر»، وضمنها رفضا قطعيا للحريات الأكاديمية البرجوازية وقال إن: «على جميع أشكال الحياة في الرايش أن تلتزم بالفكر الاشتراكي القومي». بدا حديث ممثل أساتذة الجغرافيا، الذي تلاه على المنصة، مليئا بالخوف، عندما قال: «نحن نخدم علما هادئا، يحيا فيه الوعي بضرورة أن يصير الشعب الألماني أشد قوة وأوفر صحة وأكثر حكمة وسعادة». لكن ممثل المدرسين نطق باسم معظم الجغرافيين الألمان، لا سيما وأن البرنامج المرفق خص الاكتشافات الجيولوجية والتكوينات الصخرية في الغابة التورنجية باهتمام يفوق اهتمامه بالخطط الجيوسياسية[41].

لم يترك رئيس يوم الجغرافيين أي شك في هوية القضية التي ستشكل مستقبلا نقطة الثقل العلمية للجغرافيا الألمانية، حين قال: «إن موضوعنا الرئيس هذا اليوم هو لأول مرة الجغرافيا السياسية، التي هي جزء من الجغرافيا البشرية». وأضاف: هذا المجال الذي كان هامشيا من الجغرافيا العلمية يتقدم إلى الأمام معلنا عن نفسه بصوت مرتفع: «بعد راتسل، الصارخ المتوحد، استنفرت دقات المطارق خلال العقود الأخيرة الرجال

41. مداولات وأبحاث المؤتمر السادس والعشرين ليوم الجغرافيين الألمان في فيينا من 9 ـ 12 تشرين الأول عام 1936. إصدار ألبرشت هاوسهوفر. بريسلاو 1937.

الذين يقفون اليوم في مقدمة الصفوف ودعتهم إلى العمل»، وهم كارل هاوسهوفر وابنه ألبرشت وأوسكار نيدرماير.

افتتح كارل هاوسهوفر جلسة العمل الأولى بمحاضرة عن «السجال المتبادل بين القوة والأرض في مجال المحيط الهادئ»، رسم فيها لوحة مؤثرة للقوى السياسية في المحيط الهادئ، وحدد أهدافها الجيوستراتيجية، وطالب الجغرافيين الألمان بإبداء اهتمام مستقبلي أكبر بهذا المجال. ثم قال: بقي العلم الألماني لصيقا بالمجالين المحلي والأوروبي فصار علما إقليميا، بينما عرفت القوى الكبرى الأخرى منذ وقت طويل أهمية آسيا بالنسبة إلى السياسة الدولية، وأضاف: «رغم الفتوة النسبية للتعامل العلمي / السياسي مع قضايا الهادئ، فإن القوم يسعدون بتعلمها ويتطلعون إلى اكتساب الخبرة حولها، وخاصة منهم أميرالات الولايات المتحدة الأميركية». وامتدح هاوسهوفر الجنرال دوجلاس ماك أرثر كجيوسياسي واستراتيجي يحتذى، وقال إن التفكير الجيوسياسي للولايات المتحدة يبدو له منطبعا «بطابع مفهوم واسع عن المجال»، لذلك تراه يطور تصورات ليس لدى الألمان الذين يفكرون بالمجالات الصغيرة ما يواجهون به حراكه وتطبيقه العملي، اللذين لا يحسبان حسابا لأي شيء. أخيرا، اتكأ هاوسهوفر على راتسل ليحذر من نخبة الولايات المتحدة السياسية والعسكرية، ومن تطلعها إلى بناء قوة تغطي العالم.

تحدث نيدرماير بعد هاوسهوفر مباشرة، فألقى بدوره محاضرة منهجية حول «الجغرافيا في العلم العسكري»، لم يستند فيها إلى راتسل بل إلى مولتكه: «الذي كان جغرافيا وجنديا في آن معا». ثم حدد مهام اختصاصه الجديد بصورة قاطعة: «للعلم العسكري، كما أفهمه، الحق في الوجود، متى نجح في تلبية حاجات القوات المسلحة وضمن التربية العسكرية السياسية للشعب بأسره»، وانصب على السياسة العملية وتحليل الأزمات والصراعات والحروب. وصف نيدرماير صورة معهد العلم العسكري النموذجي، الذي

يجب أن ينضوي في ورش التعلم والبحث ضمن الجامعات الألمانية القائمة، وقال إنه متعدد الاختصاصات، لكنه يعمل في الوقت نفسه من أجل حاجات السياسة العملية. أخيرا، راودته صورة عن مؤسسة تشبه تلك التي قيض لها أن تصير «بنوك الفكر» السياسية الأمنية في الولايات المتحدة الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية. ورأى أنها يجب أن تضم شعبا سياسية، وعسكرية، واقتصادية، وشعبة علوم طبيعية، وتقنية، وطبية. بذلك أخذ الجغرافيين الألمان إلى عالم غريب، يتخطى أفق اختصاصهم ويثقل على تجربتهم الحياتية والتخصصية.

أراد نيدرماير دراسة وفهم الطبيعة والمجال في تأثيراتهما على ظاهرة استخدام العنف المنظم. وانصرف اهتمامه هنا بالدرجة الأولى إلى الحرب كنزاع عنيف بين دول، مع أن الدولة لم تكن في نظره مبدأ حقوقيا مجردا، بل الشكل التنظيمي الأقدر على الفعل والإنجاز، التي يجسد المجموعات الاجتماعية الكبرى: «إننا نرى في الدولة الاتحاد البشري الأكثر تماسكا وقوة، الذي هو تنظيم وطني نشأ خلال صراع قوة مع الجيران، محدود مكانيا بقوة التزامات دولية، تمتحن قواه على خير وجه بدلالة الحرب، أو حين تستخدم لاتخاذ تدابير تستهدف الإعداد لها».

أعلن نيدرماير أنه يريد الاعتماد على كلاوزيفيتز من أجل فهم علمي «لظاهرة الحرب الكلية» وتكوين «صورة عضوية عامة» عن الصراعات العنيفة التي تنشب بين المجاميع، والتي يجب على الجغرافيا تقديم إسهامها فيها. لا يجوز أن تبقى الجغرافيا علما تخصصيا معزولا، لأن المعارف الجغرافية التفصيلية لا تؤهل وحدها المرء لاتخاذ قرارات استراتيجية. في نهاية محاضرته، صاح نيدرماير بطريقة أراد بها استفزاز الجغرافيين الألمان: «لا شك في وجود بعض المشتركات بين الجغرافيا والاستراتيجية، كالموضوع الذي يجب مراقبته ومنهج البحث. لكن هذا لا يجعل جغرافيا جيدا استراتيجيا جيدا!».

لا يؤاخذ المشاركون في اليوم السادس والعشرين للجغرافيين الألمان، إذا كانوا قد أصيبوا ببعض الذعر وظنوا أن العقيد الأستاذ الدكتور أوسكار ريتر فون نيدرماير «من رجال اليوم البارزين». ولا يثير الدهشة أن رئيس الجمعية الجغرافية الألمانية، وزير الدولة هانس شميدت ـ اوت، أراد عام 1940 تعيينه واحدا من نواب رئيس الجمعية الثلاثة. لكن قراءة صاحية لمحاضرة بينا تبين أن نيدرماير كان يدعو، رغم تنازلاته أمام النظام النازي، إلى تفكير موجه نجح القوة بالدرجة الأولى ومعلل علميا، صاحيا وقادرا على إجراء حسابات دقيقة، وأن أيديولوجية النازية العرقية والمبالغة في قيمة المجال، التي كانت تسم تفكير هاوسهوفر بميسمها بصورة متعاظمة، لم يكونا بالنسبة إليه توجها علميا مقنعا.

وصف كورت فوفينكل، ناشر «مجلة الجغرافيا السياسية»، يوم 26 تشرين الأول عام 1937، بعد عام من لقاء بينا الكبير، الصدى الملتبس الذي تحدثه مؤلفات هاوسهوفر في دوائر الحزب والدولة: «إذا سمحت لنفسي بعرض الأشياء ضمن نظرة استراتيجية عامة، قلت إن أعداءنا الحزبيين الرئيسيين يوجدون في ال إس إس، أما في دوائر الدولة فهم وزارة التربية ووزارة الدعاية»، حيث كان يسود الاعتقاد بأن نظرية هاوسهوفر قليلة الاصطباغ بالأيديولوجية العرقية. غير أن فوفينكل رأى مصاعب لدى مهتمين آخرين أيضا: «أن الممثل المحبب جدا لوزارة حرب الرايش، القائد في سلاح الفرسان بومتوف، الذي كانت لديه مواقف إيجابية منا، أخذ يصير في الفترة المنصرمة أكثر تحفظا تجاهنا، بعد زيارة قام بها إلى الدكتور نيدرماير»[42].

هل كانت هناك فروق بين «الجيوسياسيين»؟ تنصل نيدرماير في

42. رسائل فوفينكل وهاوسهوفر في هانس ـ أدولف ياكوبسون: كارل هاوسهوفر، الجزء الثاني، ص 328 و 331.

السنوات التالية أكثر فأكثر من هاوسهوفر «الجغرافيا السياسية»، لأن تركيز «الجغرافيا السياسية» الحصري تقريبا على العامل المكاني المبالغ في قيمته، كان يزداد ابتعادا عن تفكيره. وقد تلقى فوفينكل إشارة أولى إلى ذلك في تشرين الثاني عام 1937 تبين أن نيدرماير بدأ يشك في قيمة هاوسهوفر العلمية.

بالمقابل، كان هاوسهوفر عام 1937 ساذجا، مفعما بالأمل ومتفائلا في المستقبل. وكان قوي الاقتناع بأن أفكاره الجغرافية السياسية تضع حجر الأساس لسياسة ألمانيا العالمية المقبلة: «بعد السلوك الودي لقيادة ال إس إس العليا، لا أستطيع التفكير بأن النافذين جدا منهم سيعارضون الجغرافيا السياسية بصفتها هذه، فإن وقفوا في وجهها، عرفت كيف أغير رأيهم. أما موقف نيدرماير الشخصي ضد الجغرافيا السياسية فإنه سيتعارض تعارضا تاما مع سلوكه حتى الآن». لم يستطع هاوسهوفر الإيمان بأن نيدرماير لم يعد يرى فيه مرجعا للجغرافيا السياسية، خاصة وأنه بقي صديقا له، مع أنه بدأ يطرق دروبا علمية أخرى في معهد العلوم العسكرية الذي كان يديره. ومع أنه كتب في 20 آذار 1941 تقويما نقديا للطبعة الثالثة من كتاب هاوسهوفر «الجغرافيا السياسية العسكرية»، فإنه لم ينشر هذا النص الذي ينكر القيمة العلمية لجغرافيا هاوسهوفر السياسية: «إن إعلانات المصير ليست في نظري إحدى مهام العلم الدقيق»[43].

التنوير وإدارة العلم

«المعرفة قوة»: ربط فهم نيدرماير المستنير والهادف للعلم التطلع إلى المعرفة مع تحقيق المصالح الواعي بالقوة. بخلاف هاوسهوفر، لم يكن نيدرماير مناضلا علميا وكاتبا صحفيا منفردا، يعتمد على كتاباته وشبكة من

43. في الأرشيف البافاري، 122/9.

الأصدقاء والمعارف، بل نظم ورشة عمل حديثة في معهده، وعمل بمنهجية وفي اختصاصات متعددة، وفهم «السياسة العسكرية» كاختصاص خاص من اختصاصات العلوم السياسية، من واجبه إدامة روابطه مع الجغرافيا العلمية من خلال الخرائط، دون أن يضيع نفسه في مضاربات جغرافية سياسية.

موَّلت القوات المسلحة وجمعية البحث الألمانية «معهد العلم العسكري العام»، الذي أداره نيدرماير، وكان منذ 1935 في موقع مركزي يسهل الوصول إليه وسط برلين، غير بعيد عن محطات القطار في شارع فريدريك. وضم عام 1936 قاعة محاضرات و32 غرفة، ثم توسع فاشتمل على أربعين غرفة، جعلت التجهيز المكاني والشخصي للمعهد الفتي يتجاوز تجهيز كرسي تعليمي عادي[44].

دفعت القوات المسلحة رواتب مساعدي نيدرماير العلميين الثلاثة. وكان قد كسب في الدكتور أرتور كون مساعدا رئيسا ومعاونا موثوقا وجغرافي على درجة رفيعة من التأهيل العلمي، ومدير أعمال للمعهد. كان كوهن شخصا مختلفا أشد الاختلاف عن نيدرماير المتعدد الأوجه، فقد ولد عام 1904، وحصل أول الأمر على شهادة تجارية وعمل موظفا تجاريا حتى عام 1930، قبل أن يتقدم عام 1929 إلى امتحان الشهادة الإعدادية في هانوفر، وينال شهادة الموهوبين الثانوية في برلين، ويدرس الجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا والألمانية في جوتنجن، ثم ينجز عام 1935 أطروحة دكتوراه عن «تاريخ الجغرافيا في جامعة جوتنجن في القرن الثامن عشر»، ويصير في الأول من تشرين الثاني عام 1935 مساعد نيدرماير العلمي. كان الرجلان يتكاملان بطريقة رائعة، لذلك تقدم كوهن بسرعة إلى موقع نائب رئيس المعهد، وصار فعليا مديره الوحيد منذ عام 1941. ويقال أن نيدرماير

44. انظر كريستوفر ياهر: الصلة الفكرية بين القوات المسلحة والعلم والسياسة. (دون تاريخ طباعة أو اسم دار النشر).

نصحه بالانتساب إلى الحزب النازي، الذي التحق بصفوفه عام 1937. تلقى الدكتور جيرهارد أوسترايش منصب المساعد الثاني، المتخصص بالتاريخ العسكري، بعد أن درس التاريخ واللغة الألمانية وجاء عام 1935 إلى نيدرماير. أما المساعد العلمي الثالث، الدكتور إيرفين هاودن، فكان مسؤولا عن السياسة العسكرية والجغرافيا العسكرية مع اهتمام خاص بالاتحاد السوفييتي.

بدأ هاودن عام 1937 سلسلة إصدارات المعهد بأطروحة حول «القدرات الآلية للاتحاد السوفياتي»، سلمها باليد يوم 23 حزيران إلى «معلمه المبجل»، تعالج بمعونة مصادر منتقاة وغنية بالمعرفة وإحصائيات تم تحليلها نقديا القدرات الآلية للاتحاد السوفييتي وإمداداته بالوقود وبنيته التحتية. وقد وصف هاودن بطريقة تخلو من أية أحكام مسبقة أيديولوجية المكننة الفريدة في حجمها ووتيرتها التي يعيشها بلد كامل. وقال إن هذه القفزة الهائلة في المكننة، التي تغطي البلاد كلها، مع ما يترتب عليها من نتائج سياسية وأمنية بعيدة المدى، لم تكن ممكنة دون التجميع الإجباري للزراعة بقيادة ستالين.

امتلك الاتحاد السوفييتي عام 1935 300000 محرك جر أو أكبر تجمع تراكتورات في العالم، وشهدت البلاد كلها عملية تأهيل المهندسين والسائقين والتقنيين وخبراء التجميع، الذين لا تستغني الزراعة الممكننة عنهم، ويمكن استخدامهم أيضا كسائقي دبابات وعمال في الصناعات الحربية. ولخص تلميذ نيدرماير نتائج دراسته بطريقة مقنعة: «هناك عدد كاف من العمال الموصوفين من أجل تحقيق الأهداف العسكرية الصرف للمكننة (من أجل صناعة الطائرات وعربات القتال على سبيل المثال)، يستطيعون تغطية الحاجات الطارئة في الحرب». كما جرى تأمين مستلزمات استمرار المكننة والتصنيع: «تتوفر داخل الحدود السوفييتية جميع المواد الأولية المطلوبة من أجل إدامة المكننة المقرره وتنفيذها، وليس هناك من تبعية للخارج في كل ما يتعلق بها».

هذه الخلاصة جعلت الاستنتاج التالي واضحا: بالنظر إلى المكننة السريعة للاتحاد السوفييتي، وخاصة في قطاع الزراعة، فإن الاستهانة بالقدرات العسكرية السوفييتية ستكون أمرا على قدر عظيم من الخطورة. لكن قيادة القوات المسلحة العليا انتقدت أطروحة هاودن باعتبارها ودية جدا حيال السوفييت.

عالجت أعمال الدكتوراه التي اقترحها نيدرماير ورعاها مواضيع عسكرية سياسية تتجاوز الاختصاص العلمي بمعناه الضيق، وتجمع عن قصد واهتمام بين اختصاصات علمية مختلفة، وتربط تحليل سيرورات القرار السياسي والعسكري مع مناهج الجغرافيات التقليدية والإجراءات التجربية لعلم التاريخ، وتستخدم على سبيل المثال الصور الضوئية في المحاضرات والتمارين، كما فعل في الدورة الأمنية السياسية الرئيسة المسماة «مدخل إلى العلم العسكري»، أو التمرين المسمى «فصول مختارة من السياسة العسكرية والجغرافيا العسكرية». وقد دعا بصورة دورية مدرسين من الخارج، كالمؤرخ والباحث في كتابات كلاوزيفيتز لينباخ، ناشر الرسائل المتبادلة بين كارل فون كلاوزيفيتز وزوجته ماري، للتغلب على حدود الجغرافيا العسكرية والسياسية الضيقة.

لكنه كانت لقرب عمله من السياسة جوانب ظليلة أيضا. وقد أبلغ عميد كلية الفلسفة يوم 5 كانون الثاني عام 1937 أن الرسائل التي يرعاها لا يمكن تسليمها وطباعتها طبقا للوائح نظام إجازة الدكتوراه، لأن عليه تقديمها عوضا عن ذلك إلى دوائر في القوات المسلحة، لتبت في أمر طباعتها. كما كان واضحا أن رحلات البحث التي يقوم بها طلاب الدكتوراه وأعضاء المعهد لم تكن مكرسة لأغراض علمية فقط. وبعد شهر من قيامه بإخبار الجامعة عن الترتيب الخاص برسائل الدكتوراه في معهده، تلقى في شباط 400 مارك من وزير الرايش للعلوم والتربية والتثقيف الشعبي من أجل «تنفيذ بعض عمليات الرقابة الملحة في تشيكوسوفاكيا والمجر والبلقان»، قبل أن تتعاقب

التحويلات المالية «من أجل تنفيذ عمليات رقابة ملحة في بريطانيا العظمى».

يوجد ثمة وثائق في الجامعة تقرير سري كتبه نيدرماير نفسه عن رحلة إلى فرنسا، ويرجح أنه كتب كذلك تقريرا تفصيليا ذهب إلى جهات في القوات المسلحة. وكان قد حضر بين 28 تشرين الثاني و 3 كانون الأول مؤتمرا في باريس حول الاستخدام الجغرافي لصور الاستطلاع الجوي، التي كان يعرف معناها العسكري حق المعرفة مذ قام طيارو سلاح الجو البافاري برسم خرائط لفلسطين من الجو خلال الحرب العالمية الأولى؛ فلا يثير عجبنا أن مطبعة الرايش وزعت في آب من عام 1939، قبيل الحرب العالمية الثانية مباشرة، كتاب نيدرماير «أطلس فرنسا الجغرافي العسكري» على دوائر الدولة والقوات المسلحة «من أجل استخدامها الرسمي فقط!».

أتاحت رحلة نيدرماير إلى البلد الغربي المجاور إمكانية عقد صلات كثيرة، فقد تحدث مع الأميرال كاستكس، رئيس كلية الدراسات العليا للدفاع الوطني، والجنرال آذان، ناشر المجلة العسكرية العامة، والجنرال دوفال، منظم سلاح الجو الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى. وأكد بشيء من المفاجأة: «كان الفرنسيون لبقين متحفظين فيما يتعلق بمسائل العلم العسكري الأخرى، لكنهم لامسوا من حين لآخر المسألة اليهودية، وفي معظم الأحيان مسألة الكنيسة، وأشاروا إلى الفوارق بين خطب الفوهرر وتعليقات الصحافة، وإلى قضية أوكرانيا». ولأنه كان يعرف ما هو منتظر منه، فقد زعم أنه: «أتيحت فرص مختلفة هنا لمواجهة الأفكار الخاطئة، بنجاح ملحوظ بعض الأحيان»[45].

اعتبر نيدرماير المسافة بين السياسة والعلم العسكري إحدى نقاط ضعف الجمهورية الثالثة الحساسة، لكنه اعترف بتفوق العلماء الفرنسيين في بعض

45. تقرير نيدرماير (السري) حول رحلته إلى فرنسا في الفترة بين 28 تشرين الثاني و2 كانون الأول 1938، في أرشيف جامعة هومبولدت ببرلين، الجزء الأول، ص 52 ـ 58.

الموضوعات: «يتقدم الفرنسيون تقدما كبيرا علينا في البحث التحليلي والتقويم الميداني التكتيكي، بينما ينعكس الحال في مجال علم الدولة والجغرافيا العسكرية الاستراتيجية».

تثبت التقدم الألماني، الذي سجله نيدرماير باهتمام، ثلاثة كتب ضخمة تضم خرائط أصدرها بين عامي 1939 و1941، ووصف في مقدمة «أطلس فرنسا الجغرافي العسكري» الكتاب بصراحة كـ«أساس للعمل» من أجل الحرب، يضع سائر الظواهر الجغرافية والاجتماعية المهمة سياسيا وعسكريا في سياق مجسم خرائطيا، توثّق خرائطه بعناية الهجرة وتطور السكان، وتظهر في حالة فرنسا نصيب الأجانب المرتفع في زيادة سكان البلد الضعيف المواليد. فهل كان يرى في هذا عاملا يمكن أن يزعزع استقرارها؟.

استخدمت الأموال التي تلقاها المعهد عام 1937 «من أجل القيام بعمليات مراقبة ملحة في بريطانيا العظمى» بطريقة تلبي الهدف منها. وأصدر نيدرماير عام 1940 «أطلس بريطانيا العظمى الجغرافي العسكري»، الذي اختلف في بنائه وعرضه الجغرافي العسكري اختلافا جليا عن أطلس فرنسا، وتركزت نقطة ثقله على البلد الأم الأوروبي القاري، بينما رأى أطلس بريطانيا العظمى فيها قوة جزيرية بحرية هي امبراطورية استعمارية وقوة عالمية بامتياز، صورت خرائط الأطلس بأسلوب شامل قواعدها العسكرية وراء البحار، ومواصلاتها البحرية ومرافئها، والأبعاد العابرة لامبراطوريتها وطرق مواصلاتها، ومناخ واقتصاد مستعمراتها ومحمياتها.

أخيرا، وقبل الانقضاض على الاتحاد السوفييتي، ظهر أطلس نيدرماير الثالث والأخير، مع ملاحظة تقول إنه مخصص فقط للاستخدام الرسمي. هنا أيضا، تعلق الأمر بموضوع سري طبقا للفقرة 84 من قانون الرايش ولم يتعلق بكتاب علمي صرف. مع ذلك، اعتمد الأطلس الجديد، شأنه في ذلك شأن الأطلسين السابقين، على مستندات سرية عن البلد المدروس، فضلا

عن «معلومات علنية المصدر»، تقوم على أخذ المعطيات المهمة سياسيا وعسكريا من وثائق، وخرائط وإحصاءات متاحة.

كان الأطلس الثالث أفضل أطلس صدر خارج الاتحاد السوفييتي حتى ذلك الوقت. وقد ضم 233 خريطة، بينما ضم أطلس فرنسا 60 خريطة، وبما أنه أراد تقديم العالم الأوروبي/ الآسيوي الانتقالي، القاري الطابع، الخاضع للدولة السوفييتية بطريقة ملموسة، فقد ذكر نيدرماير في كتابه مواقع بيوت التبريد ومصانع السلاح والأقليات القومية.

شنايده مول

إلى جانب معهده في برلين، تابع نيدرماير مشروعا ثانيا لم يكن موضوعه مسائل الجغرافيا العسكرية، بل ارتبط بمادة أثارت اهتمام السياسة والعلم الألمانيين، منذ دراسة ماكس فيبر الكلاسيكية عن «ظروف عمال الأرض في ألمانيا شرق الإلبة»، وانصبت على علاقات الشرق / الغرب الاجتماعية والاقتصادية في ألمانيا، التي تفاقمت باضطراد منذ عام 1870[46].

كان نيدرماير، الجغرافي الذي اشتغل على قضايا الهجرة في روسيا، يعرف أوضاع مناطق ألمانيا الزراعية شرق نهري الأودر والنايسه، وخاصة منطقتي بومرن الخلفية وشرقي بروسيا، التي ألقى نظرة عامة عليها ضمن سياق اقتصادي وجغرافي سياسي كوني. وكان الشرق الألماني مهددا بالتحول إلى ضحية للعولمة، لأن استخدام مناطق زراعة جديدة في الولايات المتحدة الأميركية والأرجنتين، وطرق نقل وسكك حديدية وسفن جديدة عابرة للبحار، جعل حبوب مناطق بروسيا الشرقية عاجزة في نهاية القرن التاسع

46. ماكس فيبر: ظروف العمال الزراعيين في ألمانيا شرق الإلبة، لايبزيج 1892. أعمال ماكس فيبر الكاملة، القسم الأول، الجزء الثالث، توبنجن 1984. عمال ماكس فيبر الكاملة، القسم الاول الجزء 1.

عشر عن المنافسة في الأسواق العالمية، بينما انتقل الفلاحون الألمان الصغار والعمال الزراعيون إلى الغرب أو هاجروا إلى مناطق ما وراء البحار، بسبب الأجور المنخفضة وافتقار الفلاحين الصغار إلى آفاق، وضآلة فرص الارتقاء الوظيفية والاجتماعية في المنطقة التي يسيطر عليها النبلاء من ملاك الأرض الكبار، بينما كان قدوم عمال بولونيين موسميين يغير بسرعة البنية الديموغرافية (السكانية) في أقاليم الحدود الشرقية، في حين فصل الممر البولوني إلى بحر الشرق، الذي أقامه مؤتمر فرساي عام 1919، بروسيا الشرقية عن بقية منطقة الرايش، وسرع التدهور الاقتصادي في بومرن ومناطق بروسيا الغربية الطرفية.

لم يكن هناك في أقاليم بروسيا الشرقية «شعب دون أرض»، كما ادعت الدعاية النازية آنذاك، بل كان هناك بصورة متزايدة بالأحرى «أرض بلا شعب». زار نيدرماير بدءا من عام 1936 مناطق الحدود ضمن مجموعة عمل الجامعات للأبحاث المكانية، ولاحظ بؤس السكان المادي، والافتقار إلى مؤسسات تعليم عالي، وإلى جامعات ومرافق تدريس وبحث، ونظم في ختام الرحلة تمرينا في جامعة برلين استمر خلال الفصل الدراسي الشتوي لعام 1936/ 1937 حول «قضايا دراسة المكان في الشرق الألماني»، شارك فيه ممثلون عن الشعبة الزراعية، ومعهد التاريخ، وكلية علم الدولة، وكلية الطب». اشتغل نيدرماير هنا، كما كان يشتغل في معهد السياسة العسكرية، على منطلق علمي متعدد الاختصاصات[47]. ثم تأسس بعد عام، في خريف 1937، شنايده مول «معهد جامعة برلين لدراسة الوطن»، الذي افتتح في شباط 1938، على أن يقدم حوافز جديدة لنمو مناطق الحدود الضعيفة اقتصاديا والمتأخرة اجتماعيا، وتكون له مهمة سياسية واضحة هي التنافس

47. أوسكار نيدرماير: الخدمة السياسية الشعبية التي تقدمها المدارس العليا في مناطق الحدود وبولونيا. في انبعاث ألمانيا، السنة 24، الدفتر الثاني نيسان 1940، ص 88 ـ 92.

الفكري والاقتصادي والسياسي بين سكان جانبي الحدود الألمانية البولونية، خاصة وأن الحكومة البولونية كانت تبذل جهودا كبيرة بعد إعادة تأسيس الدولة البولونية لتوطيد الأقاليم التي كسبتها سياسيا واقتصاديا بفضل معاهدة فرساي.

كان القضاء على الممر البولوني إلى بحر الشرق هدفا سياسيا له الأولوية، يمكن بلوغه بوسائل غير عسكرية أيضا، في نظر نيدرماير، تلميذ الأستاذ البروسي الشرقي ديرجالسكي وتابع فون سيكت، الذي كان يخشى استمرار تدهور شرق ألمانيا، الملحوظ منذ نهاية القرن التاسع عشر، إذا لم توضع سياسة إقليمية بنيوية تدعمها الدولة، ويعتقد أنه الرجل الذي يستطيع ملاحقتها وتنسيقها في أقاليم شمال ألمانيا الشرقية الحدودية، ويدعو إلى ضرورة أن يتولى «معهد دراسة الوطن» رعاية مناطق ألمانيا الحدودية سياسيا وثقافيا، ومراقبة أنشطة الدوائر البولونية، وإلى أن يكون «مرصدا يراقب عمل البولونيين الشعبي وما يخدمه من معاهد صراعية». أما مكان عمل المعهد فيجب أن يكون في رأيه بين سيليزيا وبحر الشرق، وبين الأودر والفايكسل، بينما يجب أن يتركز عمله أول الأمر على مناطق ألمانيا الحدودية، كي لا نلفت أنظار البولونيين ونستفزهم دون أن تكون هناك ضرورة لذلك».

ألحق معهد شنايده مول بأغنى وأفضل جامعات ألمانيا كوادرا وتجهيزا. لكنه لم يكن من السهل إيجاد مدرسين في برلين يبادلون العاصمة المثيرة بإقليم أكاديمي في شرق ألمانيا، لذلك تأرجح علماء كثيرون بين برلين وشنايده مول ذهابا وإيابا. كانت شنايده مول المدينة الكبيرة الوحيدة في شمال شرق ألمانيا بين الأودر والحدود الألمانية / البولونية، التي تقع على طرق مواصلات ملائمة بين برلين ودانتزيج وبريسلاو، علما بأنه لم يكن هناك في المنطقة كلها الواقعة بين سيليزيا وبحر الشرق، وبين مدارس بريسلاو ودانتزيج / كونيجزبرج العليا أي موقع بحث ودراسة علمي ألماني، فهي أبعد مناطق ألمانيا عن الجامعات وأكثرها فقرا من الناحية الثقافية، وليس

فيها كذلك أماكن عمل خارج الزراعة، رغم أنها تعج بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية الملحة.

أسندت إدارة معهد شنايده مول إلى نيدرماير، وتوزعت على شعب الدولة والاقتصاد، الجغرافيا والشعب والتاريخ، بينما تكفلت هيئة تدريسية متخصصة في لغات الشرق بتعليم جيل يتقنها على إجراء دراسات موضوعها شرق ألمانيا، وتقرر افتتاح شعبة متخصصة في صحة وبيولوجيا الشعب وتعزيز المعهد بمدرسين متخصصين في الزراعة واقتصاد الغابات. انعقدت منذ نيسان عام 1939 في شنايده مول حلقات بحث للدكتوراه، في حين كان امتحان إجازة الدكتوراه ممكنا في الاختصاصات العلمية المختلفة، وفي مجال «منطقة الحدود ودراسة المكان» الجديد، الذي تقاطعت فيه اختصاصات عديدة.

كان نيدرماير يعي ما يتسم به مشروعه وعمله من حداثة. لذلك أكد في احتفال الافتتاح يوم 2 شباط 1938 على المنطلق الجديد، متعدد الاختصاصات، الذي تخطى الحدود الفاصلة بين فروع العلوم القديمة: «إنه بالتأكيد شيء جديد وغير مألوف ينسف إطار التدريس العالي الموروث. إلا أنه ولد من روح هذا العصر، التي تتطلب استخدام العلم من أجل حل مهمة وطنية كبرى». ودون أن يذكر ماكس فيبر بالاسم، وصل حديثه بأولويات بحثه، التي هي: «أسباب ونتائج انتقال السكان الزراعيين من مناطق الحدود الماركية من 1871 إلى اليوم. الاستقرار الزراعي الجديد. التوزع الجغرافي للملكيات الكبرى في شمال شرق ألمانيا ونتائجه السياسية الشعبية».

لم ينجح معهد شنايده في تخطي منطلقاته الأولى، وبدا بعد الانتصار على بولونيا عام 1939، أنه لا يصلح لأن يكون نواة جامعة في المنطقة ذات البنية التحتية الضعيفة، مع أن نيدرماير كان قد وضع تصميما طويل الأمد لعمله بعد إعادة دمج غرب بروسيا في الرايش، بدت بوزن وكأنها الموقع

الأفضل له، خاصة بعد أن بدأت السلطات النازية تطرد السكان البولونيين من غرب بروسيا. قاوم نيدرماير دون جدوى الفكرة السائدة، التي رأت أن الاحتلال العسكري والجرمنة الإجبارية وطرد البولونيين ستحل مشكلات بروسيا الشرقية الألمانية: «يعلمنا مجمل تاريخ شرق ألمانيا أن الاحتلال العسكري والتهدئة السياسية بالعنف لن يجعلا المناطق التي تمت استعادتها وتلك التي جرى كسبها ملكية ألمانية راسخة روحيا وثقافيا. وعلينا بالأحرى تحويل ما استولت عليه قواتنا المسلحة إلى ملكية خاصة بنا روحيا وثقافيا».

في تصور نيدرماير، كان على سياسة استيطان هادفة وموجهة سياسيا أن تسهم في حل مشكلات الأقاليم الشرقية الاقتصادية والاجتماعية، فكان رأيه يتفق هنا مع أفكار النازية حول «سياسة استيطان شعبية»: «يتأكد اليوم بصورة حاسمة أن مشكلة استيطان الألمان القادمين من البلطيق وشرق وجنوب بولونيا، التي يشهدها المارك الحدودي بحجم صغير، لا تعتبر محلولة بعد بأي شكل من الأشكال». وقد أعتقد بخطأ نقل أشكال اقتصادية زراعية كبيرة إلى المناطق المحتلة، وفكر بورش زراعية متوسطة كتلك التي كان يعرفها من منطقة بافاريا الدنيا والنمسا. لذا، كتب بلغة النظام النازي يقول: «سنحتل المحافظات الجديدة من خلال استيطان فلاحي يتجذر في الأرض وتتلاءم القيادة الروحية معه أيضا». وقد صدر قرار في أيلول من عام 1941 بإغلاق «معهد جامعة برلين لدراسة الوطن» في شنايده مول.

انتهازية وتكيف أيديولوجي

كان اسم نيدرماير معروفا في الثلاثينات خارج الدوائر العلمية والعسكرية، بعد أن طبع كتابه «تحت شمس إيران الملتهبة» مرات عديدة وحظي باهتمام الشباب قبل كل شيء، ثم ظهر في طبعة مختصره نشرتها الصحف اليومية كـ «الفرانكشيه كورير» في نورنبرج، وتحول بطل الحرب المغامر والأستاذ الجامعي إلى ممثل للرايش الثالث بفضل دوره العلني ومحاضراته ومشاريعه.

تزايد تعاون نيدرماير الوثيق مع النظام النازي، فكان إلى جانب عمله في برلين وشنايده مول مدير مجموعة عمل الرايش لأبحاث المكان في برلين وبراندنبرج، والمحرر الرئيس للوثائق الجغرافية والجغرافية العسكرية والسياسية في مكتب رعاية الوثائق التابع لمدير الرايش روزنبرج، وبلغ نشاطه ذروة لا شك فيها بتعاونه في مشروع «أوروبا والشرق»، وتولى المسؤولية العلمية عن المادة الخرائطية الشاملة لمعرض نازي نظم في مدن ألمانية عديدة، وكان يمكن زيارته تحت رعاية رودولف هيس خلال مؤتمر الحزب عام 1938 في نورنبرج، حيث نظم تحت عنوان «صراع أوروبا المصيري في الشرق» قبل أن يقوم بجولات واسعة في ألمانيا، وأصدر مطلع عام 1939 دليلا مكلفا كتب مقدمته ألفريد روزنبرج، الذي حدد هدفا طموحا له هو «تعزيز انتماء الناس في ألمانيا إلى الجماعة الأوروبية»[48].

تضارب مضمون المعرض مع كل ما مثله نيدرماير على وجه التقريب من مواقف علمية وسياسية حتى ذلك الوقت، وكان قد عارض في الماضي الربط الذي أقامه راتسيل بين النزعة البيولوجية والجغرافية، ثم شارك الآن في مشروع ربط الفكرة العرقية ربطا واضحا مع أهداف جغرافية سياسية. وبينما كانت نقطة ثقل نيدرماير عمله العلمية تتركز على المجالات الثقافية القديمة جدا في آسيا الوسطى وإيران وأفغانستان، أعلنت الجمل الأولى من فصل «العرق الأبيض» هامشية أهمية هذه المناطق التاريخية، وقالت إن آسيا ليست مهد الحضارة البشرية، الذي يقع في حوض البحر الأسود! حيث وضع قوم مختارون متفوقون منذ أقدم الأزمنة أسس الحضارة العالمية: «هؤلاء البشر ذوو القامة الضخمة والأعين الزرقاء والجلود الشقراء والفاتحة اللون تسميهم الأنتروبولوجيا العرق الشمالي، وعرفهم علم العصور القديمة كصناع فخار

48. هانس هاجمايير وجورج ليبيرانديت: أوروبا والشرق (خرائط العقيد الأستاذ أوسكار نيدرماير) ميونيخ 1939.

بسبب طريقتهم الخاصة في صنع منتجاتهم الحجرية». أليس هذا عالم الطوائف والطقوس الفكري، وليس عالم العلم ولغته؟.

روج المعرض النازي وثنية جديدة استندت إلى دين شمالي وإغريقي، كان يجب أن يكون غريبا ومثيرا للعجب في نظر نيدرماير، الذي أكب على الأديان الشرقية السرية، وعرف الإسلام، وكان على صلة وثيقة بالبهائية، وعرف كما لم تعرف إلا قلة أهمية آسيا بالنسبة إلى إرث أوروبا الحضاري، ووضع اسمه، الآن، في الصفحة الأولى من نشرة تقطع مع هذا التقليد وتقول: «لكننا عرفنا أن هذا الشرق، الذي تصارع مع أوروبا، لم ينجح في تقديم أي مخلّص إلى عرق قارتنا الأبيض يستطيع تعيين معايير وأهداف قوانينه الحياتية الأصلية». ثم أضاف: «وبالمقابل، تعلمنا أحدث الأبحاث أنه لم يكن هناك إطلاقا أي عطاء أو رسالة من الشرق لها أهمية وعمق كفاح الشعوب الشمالية الأسطوري في تلك الأزمنة، التي صدت خلالها غاراته، ودافعت بواسطته أوروبا المتألقة عن نفسها برجولة ضد رغبة الآخرين في إبادتها».

كانت خرائط نيدرماير قوية التعبير ومؤثرة، تهبها أسهم تشير إلى الحركة حيوية وطابعا عدوانيا. وقد وثّقت، بصفتها جزءا جوهريا من المعرض، الصراع بين المجالات المنظمة الكبرى والممالك، ومسار حركات تجوال وتهجير شعوب بأكملها، فأحاطت بحملات الإسكندر الأكبر، وأظهرت «طريق الحرير» وطرق المواصلات بين البحر المتوسط وآسيا، وعمليات طرد اليهود في الإمبراطورية الرومانية والمدن الأوروبية، التي عاش فيها عام 1937 أكثر من عشرين ألف يهودي. في حين تحدث النص المصاحب لها عن الماركسية باعتبارها عتبة البلشفية الأولى، وأعلن أن رد المؤامرة اليهودية/البلشفية هو مهمة مشتركة لا بد أن تنجزها الجماعة الأوروبية.

هذه الصور والخرائط وضعها الرجل نفسه، الذي ألهم كارل راديك وتروتسكي وسواهم من اليهود البلاشفة، وكان عام 1935 متهما بالتعاطف مع البلشفية، وكتب عام 1921 في مذكرة سرية إلى قيادة جيش الرايش أن إشاعة فوضى طويلة الأمد في الإمبراطورية البريطانية «لا يمكن أن يتم دون دعم يهودي»[49]. ألم تكن بعثة أفغانستان، التي يضخمها نيدرماير الآن ويحولها إلى «حرب ألمانية على الحدود الهندية»، تصوّرا قدّمه ماكس فون أوبنهايم سليل إحدى الأسر اليهودية، لإطلاق انتفاضة الشعوب الملونة ضد «البريطانيين الشماليين»؟. ألم يطرح نيدرماير عام 1918 فكرة العمل مع البلاشفة ضد البريطانيين؟. إن إحدى خرائطه، التي جعل عنوانها «العالم كله يقاتل ضد قلب أوروبا (الوضع عام 1918)» تظهر الآن القوقاز في أيدي قوى المحور، دون أن توضح أن وضعه هذا يرجع مباشرة إلى الدعم الذي قدمته ألمانيا إلى لينين.

إن من كان يعرف مثل نيدرماير حضارات آسيا الرفيعة وتاريخها، كان يجب أن يشعر بسخف وتفاهة إعلان الأيديولوجيين النازيين أن صناع الفخار في منطقة بحر الشرق هم آباء مؤسسين للحضارة العالمية، خاصة وأنه سبق لأستاذه في إرلنجن، جورج ياكوب، أن رفض عام 1924 جميع المحاولات الأيديولوجية لإقامة حدود فكرية وحضارية تفصل أوروبا عن آسيا، وقال إن تأثير حضارات البحر الأبيض المتوسط على شمال أوروبا كان أوثق وأعمق في أفق التاريخ العالمي زمانيا ومكانيا من المبادرات التي قدمها الشرق لأوروبا»[50]. ونحن نعيش في ظل دين شرقي لم يفهم مؤسسه اللغة

49. نيدرماير: تقويم الشروط الجغرافية العسكرية لهجوم على الهند. محاضرة ألقيت في شباط من عام 1921 في وزارة جيش الرايش (سرا). فير تركة: جونتر فوجت، معهد أفغانستان السويسري / وقفية المكتبة البريطانية، ص 29.

50. جورج ياكوب: نفوذ الشرق على الغرب. أوسنابروك 1972 (طبعة جديدة لكتاب عام 1924). ص 6.

الإغريقية بل تحدث الآرامية، من العبث أن نبحث في الأدب الهلليني عن صور قد تكون مهدت لأمثاله وحكمه». ثم يقول جورج ياكوب، الذي جعل عالم البكتاشيين والصوفيين أليفا بالنسبة إلى نيدرماير، بعد هذا: «نعم، وحتى العيد الألماني الأجمل، عيد الميلاد، جذوره في الشرق». أما من لم يفهم ذاك بعد، فإنني «أذكّره أن الألماني ميشائيل يحمل اسما شرقيا بدوره».

لا يسعنا غير تخمين البواعث التي دفعت نيدرماير إلى العمل مع روزنبرج وأركانه. فهل كانت الانتهازية والطموح الشخصي؟. هل أغوته المكافآت والمعونات الإضافية التي كان يريد الحصول عليها من أجل معهده ومشروع شنايده مول؟. أم أن نيدرماير «الأوراسي»، شريك راديك وتروتسكي السابق، آمن بضرورة إثبات صدقيته وولائه للخط النازي؟. كان جورج ليبراندت أحد المشاركين في إصدار دليل المعرض، وقد ذكر اسمه كشاهد في تقرير شرطة الدولة السرية عام 1935. انتمى ليبراندت، الأصغر سنا بأربعة عشر عاما من نيدرماير، إلى جيل العلماء الشبان المؤهلين أكاديميا والطامحين سياسيا، الذين أضفوا حيوية خطيرة على السياسة النازية، فقد جمع عام 1932 خبرات في الولايات المتحدة الأميركية، عندما ذهب إليها بدعوة من مؤسسة روكفلر، وصار فيما بعد مسؤولا عن قضايا الشرق في مكتب السياسة الخارجية التابع للحزب، المنافس الحزبي لوزارة لخارجية، وشارك أخيرا في مؤتمر فان سيه بصفته مديرا وزاريا مسؤولا عن مناطق الشرق المحتلة[51].

يلقي كتاب ثان صدر بدوره عام 1939 تحت عنوان «السياسة العسكرية» ضوءا تكشف التباس موقف نيدرماير[52]. إذا ما ألقينا نظرة أولى على

51. ميشتهيلد روسلر: العلم والمجال الحيوي، ص 126 ـ 128.

52. أوسكار فون نيدرماير: السياسة الدفاعية. لايبزيج 1939. المقدمة والصفحات 20/ 21 و96 و 100.

الكتاب، وجدنا صياغات كثيرة تقترب اقترابا صريحا من الدعاية الحربية النازية، فإن قرأناه بعناية وقارناه مع مخطوطات محاضرات الكاتب، التي يستند إليها، تكونت لدينا صورة متناقضة. وقد لفت نيدرماير نفسه نظر القارئ إلى تحفظاته وشكه الذاتي، حين قال: «كنت لفترة طويلة ضد نشر هذا الكتاب، نتيجة معرفتي بمشكلات».

إن من يقرأ تلميحات النص وتحذيراته ويحاول قراءة ما بين السطور، سيضع يده على أشياء مدهشة، منها مثلا إن الفصل التمهيدي يطالب في نهايته بالتعلم من أخطاء الماضي الألماني، وأن نيدرماير استخدم مصطلحات الرايش الثالث الرديئة، لكنه أضفى عليها في الوقت نفسه معاني تنصح بالحذر في مجال السياسة الخارجية، وبالصمود والترقب، وذلك قبل فترة قصيرة من انفجار الحرب العالمية الثانية. ثم قال: «أن من يتابع بانتباه تاريخ صراع الجماعة العرقية الألمانية، سيتأكد من وقوع اختلاط أعراق ودماء مخيف في عصر التصنيع والمدينة الليبرالي، أدى إلى وقوع ضرر روحي وجسدي جسيم. انطلاقا من هذه النقطة أيضا، يحتاج شعبنا إلى تقرير مصير، وإلى تجميع وراحة». وقد طبع كلمات «تقرير مصير، وتجميع، وراحة: بكلمات بارزة.

تلفت النظر أيضا الطريقة التي قدم نيدرماير بها هتلر، الذي تحدث عنه في أواسط الثلاثينات باحتقار إلى كريستوفر سايكس، وقال إنه سياسي لديه إدراك صف ضابط. تدل تصريحات لاحقة، مصيرية خلال الحرب العالمية الثانية أن هذا الرأي جسد أفكار نيدرماير الحقيقية عن هتلر. وقد وضعه عام 1939 في السياق المقوم نقديا لتاريخ ألمانيا الأحدث، وقال إن صعود السياسي النازي يرجع إلى أزمة رايش القيصر الداخلية: «من غير الممكن فهم الاشتراكية القومية وعمل الفوهرر دون مأزق الرايش الثاني السياسي والروحي والفكري. إن العودة إلى الظروف القديمة تبدو لنا غير ممكنة الوقوع الآن. هذه الإرادة التكوينية السياسية يجب أن يكون قد سبقها تكوّن

فكري تاريخي سابق، نستطيع اليوم التعرف عليه بوضوح في صلته بالاشتراكية القومية». لم تجعل إنجازات شخصية بارزة صعود هتلر ممكنا، بل جعله تطور ما قبل 1914 والهزيمة في الحرب العالمية: «نشأ استعداد الشعب الألماني لقبول الفكرة الجديدة بسبب الهزيمة وكارثة الحرب العالمية السياسية». وفي النص جمل يمكن اعتبارها تحذيرا من هتلر: «في كل مكان شهد ازدراء قوانين وأواصر الطبيعة والزمان نتيجة ظهور عظماء يتمتعون بإرادة قوية، كان عمل هؤلاء عارضا . . . وتكون نظم الشعوب أكثر قدرة على الاستمرار والصمود بقدر ما تكون متآلفة مع الشعب بمجمله وليس مع عبقرية فريدة، وتكون مكرسة للبقاء إلى أمد طويل، وتنمو بطريقة تدرجية، بطيئة وعضوية».

أخذ نيدرماير بحجج أيديولوجية عرقية إلى ملاحظات محيرة، كمقارنة إنجلترا مع ألمانيا والتأكيد على العنصر العرقي أنقى في الجزيرة منه فيها، وكقوله إن السياسة الإنجليزية لا تتعين بالانتماء العرقي والتركيب الإتني، بل بالمجتمع والتقليد الفكري، وإن التوافقات تربط القوم في الجزيرة بصلات أقوى بكثير مما تربط الألمان، الذين اعتادوا على طاعة التحديات الصادرة عن الدولة بالدرجة الأولى. وهو يؤكد أنه: «لا توجد في أية دولة أخرى هذه اللاحرية الشخصية، وهذا التقيد بالتحديدات، وهذا الإكراه النمطي الموجود في إنجلترا»، الذي يقابله حراك الحياة السياسية ومرونتها بما فيهما من اختلاف عن الميل الألماني إلى «النظرية الجامدة». ثم يحذر بشدة من اعتبار إنجلترا قدوة تحتذى، لاعتبارات تتعلق بقرابة عرقية موهومة أو ببواعث أيديولوجية: «بوسعنا اختيار النموذج الإنجليزي في التربية، الذي أسس شعبا واحدا، دون أن نسقط في الواحدية الإنجليزية ونقتل كل حرية فردية، «نقضي على الحياة الألمانية الغنية والعميقة» في بلدنا.

ترك الإنجليز لدى نيدرماير الانطباع الذي تحدثه الواحدية الصاحية،

لأن جزيرتهم هجّنت في انغلاقها على ذاتها «نموذجا بشريا قويا وموحدا»، هو بالضبط ما كان يرفض قيامه في ألمانيا، حيث تتسم صورة المثال الذي ينشده بالانفتاح والتنوع وليس في التماثل والوعي الجزيري: «تختلف الصورة في ألمانيا كل الاختلاف عن ذلك، بفضل حياة القبائل الخاصة الغنية، وتبعثر ريفها، وتدفق الأغراب الدائم إليها، والمؤثرات التي تتدفق عبر حدودها المفتوحة». وثمّن نيدرماير في قومه البافاريين ميلهم إلى ابتداع أشكال فنية ترتبط بالأرض، وقدرتهم على إيصال ونقل خصائصهم الشعبية»، بينما «حدود شرق ألمانيا مائعة».

كتب نيدرماير عام 1939 جملا تعتبر نقدا قاتلا للنظام النازي: «لا بد من ذكر جانب آخر من نقاط الضعف الألمانية: هو الشعارات، والجمل، والجلافة، وانعدام القدرة على الفعل. هذه صفات كان لها دوما تأثير خاص مأساوي وعميق، حين كانت تأتي من مواقع قيادية وتجد صدى واسعا لدى جماهير الشعب، وتستغلها شريحته القائدة فكريا بطريقة تفتقر إلى الفطرة وتمتلئ بالتزلف وبالحراك الذي لا جدوى منه». ألم يكن هذا نقدا ذاتيا أيضا، نقدا ذاتيا يفضح قيام عالم وجندي بخدمة قائد سياسي، وأيديولوجية ونظام، مع أنه كان واحدا من قلة قليلة تعرف ما يضمره طريقه من كوارث ومآسي؟.

يشير تأثير وعمل نيدرماير في الثلاثينات المتأخرة إلى بلوغه دركا فكريا سحيقا، ومعاناته توترا داخليا شديدا. إن من يقوّم دوره وكتاباته السياسية دون أن يدرك رأيه الصميم عن القيادة والأيديولوجية النازيتين، سيرى فيه ممثلا طموحا للنظام النازي. وحتى عندما يضع نفسه ظاهريا على الأقل في خدمة النظام، فإن سؤالا يطرح نفسه حول بواعثه: هل كانت النزعة القومية المفرطة، أم الانتهازية، أم أنه مارس، وهو الذي تعلم التحرك متنكرا أو بأسماء سرية، فن التمويه الشرقي الذي يسمونه «التقية»؟.